سِرُّ الإِزْمِيلْ

اسم الكتاب:  سِرُّ الإزّمِيلْ

النوع: رواية

تأليف: محمود المرضي

إصدار: ٢٠٢٢ - ٢٠٢٣

تصميم الغلاف: إسراء ناصر

التصحيح اللغوي: ريهام محمد

الإخراج الفني: عبدالعليم منا

رقم الإيداع: ٢٠٢١-٥٤٤٠١

الترقيم الدولي I.S.B.N: 978-977-994-200-8



جمهورية مصر العربية – القاهرة

مدير النشر: ولاء الكاشف


+01210967244


elwalaapuplishing @gmail.com



جمهورية مصر العربية – القاهرة

مدير النشر: محمد جلال


+201210826415


www.bbibliomania





رواية الأديب والفنان التشكيلي السوداني

محمود المرضي



مقدمة

تلألأ الندى طربًا برقصاتِ النسيم مُداعبًا رقة الأغصان فجرًا، وقد صار الكون في حالة احتشاد، واستعداد لاستقبال يوم جديد حافل بالعرقِ، والجد والجهد والاجتهاد، ولسان الحال يقول:

_ فتاح يا عليم، رزاق يا كريم، يسر لنا يا الله مِن الأمور ما تعسر، وهون علينا جبروت المعاش، وقسوة الظروف، وما قد تعذر؛ فإن البشر قلوبها التي كانت فيما مضى رحيمة تحجرت!

قالها مُزمل على لسانِ كل عامل تلألأت حبيبات العرق مِن على جبينهِ الساطع صباحًا، وقد وثب مكافحًا يتطلع للرزقِ الحلال، والكسب المبارك الطيب، يكدح ويتعب طول النهار صابرًا مُحتسب.

قالها مُزمل على لسان كل عامل في مصنعٍ مِن حولهِ أزيز الماكينات، والآليات الثقيلة، وعلى لسان كل مُزارع يحرث الأرض ويزرعها، متوشحًا معوله، مستندًا على مجرفتهِ، يسلت بإبهامهِ العرق مِن على جبينهِ سلتًا، ويرش بهِ التراب مبتسمًا وهو يرمق لهيب الشمس المتوهجة بعينيه، وهي تلتف حوله بحرارتها.

للصباح هنا في مدينة مُزمل لون فتان يَسُرُّ الناظرين؛ إنه رحيب كالخارطة الواسعة، ومنشرح كصدرِ المؤمن، يزدان رونق الصبح باخضرارِ العُشب النضير، وبتدحرج حبات الندى، الظل ممتد منبسط وبهيج، تراه يكسي السهول يُغطي معظمها بأريحيه تامة.

قالها مُزمل:

_مدينتنا وَضاحة المَحيا، ندية الطلة، وما ذلك إلا ببشاشة أهلها الذين هم أهلي وقومي، وعشيرتي بكرمهم الفياض، وطيب خِصالهم وحُسن معشرهم.

ولكن مَن أنت يا مزمل! ما قصتك! أو ما حكايتك أنت وأسرتك وأبنائك؟ مَن هي زوجتك؟ كيف ربيت أبنائك ونشأتهم؟ ماذا حدث فيما بعد، وما تَوالى مِن أحداث؟ ماهي تفاصيل الحكاية؟ وكيف بدأت المغامرة، وكيف انتهت؟ وكيف كانت قصة الحب شفافة وناصعة البياض؛ كزهر الياسمين، والأقحوان البسّام..

أحبائي.. هذه بعض الأسئلة، والاجابات تأتي على مهل، وما هذه الكلمات سوى مقدمة يسيرة لفصول الحكاية.

وبدأت القصة مِن مدينة عروس الرمال، وما أدراك ما هذه المدينة! فيها عاش أفراد العائلة الذين هم محور قصتنا، وفي كنفها ترعرعوا، منها كانت انطلاقتهم، إذ فيها كانت نشأتهم، وعروس الرمال.. إنها لمدينة فاتنة البهاء، يزيدها الخريف جمالاً وتألقًا، عندما يسكب الغيم الخريفي المُثقل بالماء دلاءه على رمالها الذهبية اللامعة، كل شيء فيها يتلألأ، رمالها، أشجارها، أزهارها، روابيها، تلالها، جبالها وسهولها، كل شيء فيها يزداد جمالاً، حول أشجار التبلدي يحلو المَقيل والجلوس، والسمر على الرمال المتموجة والمنحدرة؛ يحلو الاستلقاء والاسترخاء بِلا كلل أو ضَجر، ليلاً يصفو المكان، يحفهُ بالضياءِ واللمعان، شعاع القمر عندما يُنثر في الأرجاءِ ضوئهُ المخملي الرخيم الناعم..

عروس الرمال؛ هذه المدينة المرمرية العسجديةِ البَّراقة، فيها التبلدي شامخ، والنيم مُخضر، وفيها الشهاب والهجاليج وغيرها مِن الأشجار، بالقرب مِن كثيب الرمل وعند الخور العريض يجتمع الناس؛ هذا بدلوهِ مِن الماءِ يغترف، وذاك يستحم، والآخر يسبح، والأطفال يتقاذفون ويمرحون.

★★★

قصتنا احتواها سر غامض خبأته الرمال تحتها لزمنٍ طويل، قصتنا قصة للحبِ والذكرى، والحنين والصِلات الطيبة بين أفراد هذه الأسرة الكريمة، قصتنا احتوت مغامرة وسفر طويل، ورحلات شاقة وسط الفيافي والقفار البعيدة، وفي أعماق البحار والمحيطات الهائلة السحيقة.

تسربلت حكايتنا بكساء حريري مُزركش، وتكنفها غيم بلوري مُدهش، فيها امتزج الحزن بالسرور، والغبطة بالحبور؛ فكانت المغامرة في أفيائها شيقة بما فيها مِن لذَّة الوصل والوصول، وبما فيها كذلك مِن مُكابدة للأهوالِ المعقول منها واللامعقول.

حكايتنا قصة للحبِ إذ كان الحب في روابيها صافيًا عفيفًا شفيفًا، حكايتنا انطوت على تضحياتٍ تلتها تضحيات؛ حينما امتزجت الدموع بالآهاتِ إثر صعوبات مترادفة، ومشاق متتابعة، والغريب في ذلك أنها جعلت للعناءِ لذة، وللكدحِ متعة، وللصبرِ فائدة.

إذ كان الصبر يحدو أبطال قصتنا نحو أهدافهم، يُرشدهم ضوء نهارهُ الوَضاح في أحلك المواقف ببريق شُعاعي لا يُخمد إشراقهِ الجلي أبدًا، لا عصف الرياح تزعزعه، ولا هول الزوابع تُبعثرهُ، وذلك في ظلالِ مكابدة أهوال عظيمة، احتضنتها البراري المُوحشة والقفار القاحلة، في ظلال مصاعب تقاذفتها أمواج المحيطات البعيدة؛ ليشرق مِن خلال ذلك كله قبس جميل زاهي، وَارِف كأقواس قزح الجائل فوق المدارات برحابة وتألق؛ فكان ثمة صراع دائم دائر بين الأمانة والخيانة، بين الوفاء والغدر، بين الشُح والإيثار، بين الحب والكراهية، وبين الخير والشر.

وقد قالها مُزمل موصيًا ابنه:

_تَجرع الصدق وإن لم تستسغ طعمهُ المُر في البداية؛ فالصِدق يا ولدي دواء مُجرب وفعال لكل شقاء وضراء وعناء، لا يلعق لسانك الكذب؛ وإن كان حلوًا كالشهد وذو اشتهاء، لا تلعقنه فحلاوته تعقبها مرارة حنظليه، إن رمتك الدنيا بِنصالها يا ولدي اجعل درعك وتِرسك الأمانة؛ وليكن جوادك اليقين، وسلاحك الصبر، ومدفعك التواضع؛ فما دُمت حيًا فإنك في غِمار معركة طاحنة، وتخوض حربًا ضروسًا ضد نفسك أولاً وأعدائك ثانيًا؛ فالعدو غالبًا لا يتسلل إليك إلا مِن خلال ثغرة وجدها فيك، وبحجم هذه الثغرة يقع الفساد والإفساد مِن قِبله؛ فأفهم وتدبر، إياك مهما اعتراك مِن المصاعب أن تستسلم أو أن تيأس وتقنط، بل اصبر وصابر، واحتسب وكافح، وثابر واجتهد؛ فمَن توكل حق التوكل على مَن يقول "إني قريب مجيب" لا يخيب.

ما زال مُزمل الأب يوصي ابنه عِدة وصايا، والابن ما زال يرهف السمع لكلمات والده؛ التي ظل يتلوها عليه بصوت حكيم مُتزن، مليء بالثقةِ والاتزان؛ ليحفظها عنه الابن ويعمل بها، وهو يعي عظمة هذه المعاني والدروس، هذه القيم والمعاني ليست حديث يوم وليلة، وليست كلمات مُنمقة، أو ألحان مدوزنة تمر على الأذان مرور الكِرام، لا بل إنها تربية وتنشئه راسخة وثابته لا تتزعزع راسية كالجبال، مِن هذا المنطلق الأصيل بدأ الصراع ينشأ بين ما هو قبيح وما هو جميل؛ فكانت المعركة حامية، والنزال مستمر بين كل خلق جليل وبين كل خلق رذيل، أمام شاطئ هذا البحر الهائل رست سفينة حكايتنا بميناء الحروف، متهيأة لشق العباب، وهي تودع الجروف بعدما اجتازت قافلتها صحراء قاحله موحشة الداخل، فيها مفقود والخارج منها مولود.

بعد هذه المقدمة الطَرُوبة؛ لعل الجميع متشوق لسبرِ أغوار الحكاية؛ ولعل الجميع له شغف متناهي لمعرفة ماهيتها وكشف أسرارها.

★★★



الفصل الأول
يوميات أب

الحاج "مُزمل" رب الأسرة الذي هو زوج حجة "النِعمة" ووالد "هاديه وأنس" اشترى الحاج مُزمل الذي يعمل نجارًا ولديه ورشة نجارة في سوق مدينة (الأُبَيِّض) جريدته الصباحية التي تَعود على قراءاتها يوميًا، لكن في هذا اليوم أثار انتباههُ وجود عنوان رئيسي مكتوب بالخط العريض وباللون الأحمر، هذا العنوان غريب ومفاجئ بعض الشيء وهو:

(صائدي الكنوز يقومون بالسطو المسلح على المناطق الأثرية في مروى والبجراوية، وأنباء عن وقوع إصابات بين المواطنين)

ذُهل مُزمل وصُدم، كيف لهذا أن يحدث! شرَّع بعدها في قراءة واستبيان تفاصيل هذا الحدث المُروِع والمؤلم، تابع قراءة الخبر وقد حوى..

(جماعه إجرامية عالمية متطرفة، تتسلل إلى المناطق الأثرية في مدينة "مروى" و "البجراوية" قامت هذه الجماعة الإجرامية المنظمة بالسطو المسلح على الآثار الكوشية القديمة في منطقتي مروى والبجرواية، وكان هذا الأمر عدوانًا سافرًا على الإرث الثقافي والتاريخي للأمة؛ فمِن المعلوم أن القِطع والمعالم الأثرية في أي حضارة لا تكمن قيمتها في كونها قطع، قد تكون هذه القِطع الصغيرة تحكي عن هوية ملايين مِن الناس، وتُلهِم الآلاف منهم لصنع المستقبل المُشرق، كما فعل أسلافهم في الماضي؛ فالأمم لا تعيش ولا تنمو، ولا تزدهر إلا بتاريخها وحضارتها، ومعالم ريادتها وتقدمها)

★★★

وهنا انتهت تفاصيل هذا الخبر المُفجِع؛ الذي لم يتمالك الحاج مُزمل نفسه حين قراءته، وظل يُردد إنا لله وإنا إليه راجعون، ودعا بأن يحفظ الله العباد والبلاد ويُجنبنا شر المُعتدين والظالمين.

تناقش الحاج مُزمل مع صديقه حاج "نور الدائم" الذي يعمل خياطًا وله دكان جوار ورشة مُزمل لأعمال النجارة، تناقش معه حول ذلك الحدث وكيف للبلادِ أن تنجو مِن مثل هذه المكائد والأزمات، دار بينهما حوار طويل لكنهما في نهايته لم يصلا لنتيجة مُقرره؛ فالآراء والحديث في عالم السياسة وما يتصل بها مِن أحداث بحر خادع، عميق الُلجة مظلم القعر، إذا أخرج الإنسان يده لم يكد يراها مِن شدة ظلمتهُ.

قصة كفاح ومودة..

بعد ذلك طلب مُزمل لصديقهِ نور الدائم كوبًا مِن الشاي بالنعناع الطازج مِن بائعة الشاي المجاورة لورشه النِجارة وذلك صباحًا، شربا الشاي على عَجل، ثم بدأ مُزمل في عملهِ في ورشة النجارة يقص ويلصق، وينظف ويجمع الأخشاب، وذهب نور الدائم إلى دكانه المجاور، وانكب على ماكينة الخياطة يُفصل ويُخيط الملابس بإخلاص وتفاني وإتقان، بدأ مُزمل في أداء أعمالهِ، ظل مُزمل قائمًا يعمل إلى أن حل عليه المساء وهو يعمل بجهد وتفاني.

عاد الحاج مُزمل مساءً مِن مكان عملهِ وهو مُنهك خائر القوى، بعد يوم عملٍ شاق طويل، بَسط على الأرضِ "فَروَته" وصلى عليها العشاء، واستلقى بعدها على سريرهُ الخشبي المنسوج بحبال البلاستيك، بحوش منزلهِ الرحيب المفروش بالرملِ الناعم، المرشوش بالماء، الجو في ذلك الوقت معتدل، يجود بنسماتٍ هانئة، لا يُعكر صفوها كدر، ولا يخالِطها ضوضاءٌ أو ضجر، في هذه اللحظاتِ الحالمة، مُزمل مضجع على فراشهِ واضعًا كِلتا يديهِ تحت رأسهُ وهو مُستلقي يتأمل، في

تلك اللحظات سرح بِخياله عاليًا، ينظر للسماءِ على امتدادها وروعتها مُخاطبًا نفسه:

_ما أجمله مِن ليلٍ فيك يا عروس الرمال، وما أروعه مِن مشهدٍ وأنت ترى النجوم مُتناثرة في الأفق الشاسع بكامل رونقها واللمعان؛ لكأنها ذراتٌ وقطراتٌ مِن لُجين صغيرة نُثرت على بساطٍ مِن زُمردٍ كحلي، والقمر العملاق يتوسط الأفق يَطل علينا بأبهى حِله وأجمل منظر، يحتجبُ بالغيم حينًا في استحياء، ويظهر بعدها في كاملِ البهاء.

بعد هذه المشاهدة والتأمل، تساءل مُزمل مُحاورًا خاطره:

_ كيف لصدري أن يضيق بسبب الهموم والمتاعب! كيف ذلك وأمامي سماءٌ بهذِهِ الرحابة! إنها لتبعثُ في نفسي الأمل، ستهون الشدائد حتمًا وتزول.

انقلب مُزمل على جنبهِ وهو مُضجع على فراشه، عيناه يُراودهما النعاس شيئًا فشيئًا، بَسط كفه ووضعها تحت خدهُ ورأسه على وسادته، النوم يزوره شيئًا فشيئًا يُهدّهِدهُ كالرضيع، صوت حفيف أغصان شجيرة الليمون الحانية، المُطلة عليهِ بأريجها المُريح الهادئ، نام مُزمل بعد ذلك وهو مطمئن الضمير، ناعم البال.

ليُؤذن بعدها لصلاةِ الفجر، زار النداء آذانهِ واستشعر بهما كلماته، وصل صوت المؤذن لمسمعهِ رخيمًا سلسًا، يمحي عن الليل سكونه، وعن المحزون شجونهِ.

صَحى مُزمل مِن نومهِ وتمطّى شادًا عضلات يديهِ ورجليه، تثاءب لوهلةٍ يسيرة، ثم تناول مِن جوارهِ إبريقه المليء بالماء، نضح منه نضاحات على وجهه وجِفنيه، ثم نهض بعد ذلك نشيطًا ليتوضأ، فتح باب الدار وسار وئيد الخُطى للمسجد يُضيف إلى وقاره وقار، سحابةُ الشيّب المُغطية لشاربهِ الغزير وشَعرُ

رأسه، حاملاً بيُمينهِ (بطاريته) القديمة المعدنية ذات الغطاء الزجاجي، البطارية تسكبُ ضوؤها البرتقالي الخافت أمامهِ، مُبينةً له منعرجات الطريق ومنعطفاتهِ وهو يتكئ على عصاه الآبنوسية الرفيعة، ذات المقبض الفضي اللامع؛ التي أهداها له صديقه المُقرب الخياط نور الدائم، الطريق المؤدي للمسجد يألف ملامح مُزمل السمراء مِن كثرة عبورهِ بهِ ذهابًا وإيابًا، غُدوًا ورواحًا مؤديًا شعيرة الصلاة.

في تلك الليلة قُبيل صلاة الفجر رأى مُزمل في نومهِ كأنه قائم أمام جدار طويل، يكاد الجدار أن يهوى عليه مِن شدة ميلانه، وهو يدفعه بكلتا يديه لكي لا يقع عليه، عندما وصل مُزمل للمسجد التقى بإمام المسجد وسأله عن تأويل تلك الرؤيا؛ فأخبرهُ بأنه قد يعثر على كنز أو شيء ثمين في مكانٍ ما.

رجع الحاج مُزمل في ذلك اليوم لمنزلهِ مُتأخرًا، دخَّل إلى فِناء منزلهِ فرأى زوجته حَجه النِعمة ما زالت تجلسُ على "البمبر" تصنع رقائق الكِسرة في زاوية الحوش أمام المطبخ، تُسوِي بيديها العجين وتشرَّع في تجهيز "الصاج" هفهفت بال(هبابه) نارها وتُوقدها، فسألها عن سببِ انشغالها إلى الآن بإعدادِ (الكِسرَّة) فقد كانت تُجهزها باكرًا، وتَبيعها قبل حلول المساء؛ فأخبرته بأن جارتها "سعاد" وهي زبونه دائمة، تشتري دائمًا منها الكِسرة، طلبت منها إعداد كمية إضافية من الكِسرة؛ لأن زوجها الأفندي "سَلمان" وصل مِن سفره واغترابه الذي دام لعامٍ ونصف في إحدى دول الخليج، وبيتها مزدحم بالضيوف، وقد اشتهى زوجها الأفندي سَلمان في ذلك الوقت أن يأكل (الكِسرَّة) بمُلاح (النِعيميه) مع ضيوفه، علمًا بأنها وجبته المفضلة التي لطالما حُرِم منها أثناء فترة غِيابه عن السودان، وافقت حجة النِعمة على إعداد الكِسرة لها في هذا الوقت المتأخر، وذلك إكرامًا لها؛ فهي زبونتها الثابتة التي لا تشتري مِن غيرها..

★★★

دنا الحاج مُزمل مِن زوجته حجه النِعمة، دنا منها وعيناه تَفيض بالدموع وقبَّل يديها ورأسها قائلاً:

_حفِظكِ الله ورعاكِ يا النِعمة وكان في عونِك، دائمًا لا تُخَيبِّينَّ ظن أحدٍ جاءكِ في خدمةٍ مهما كلفكِ ذلك مِن تعبٍ ومشقة.

ارتسمت على وجهها ابتسامه زاهيه، نابضة بالمشاعر، وهي تجول (بالقَرقريبة) تُزيل بقايا العجين مِن أطرافِ (الصاج) في ذلِك الحين وصل ابنهما أنس، طلبت منه والدته إيصال (الكِسرة) التي غدت جاهزة إلى منزل جارهم الأفندي، ففعل..

استقبله جعفر ابن جارهم الأفندي قريباً مِن باب منزل أنس وهو في طريقه للخروج، وقد كان يحترم أنس ويُقدرهُ تقديرًا بالغًا، بعد أن أخبره بأنه ذاهب ليوصل الكِسرة لمنزلهم، أخذها منه واعتذر منه قائلاً:

_نحن آسفون، أتعبناكم معنا.

أنس:

_لا عليك، كيف حال والدك الأفندي، وكيف حال والدتك؟

جعفر:

_هم بخيرٍ الحمد لله.

أنس:

_سَلم عليهم، وبلغهم تحياتي.

جعفر:

_يوصل إن شاء الله.

★★★

تجوال ولغز مُحير..

ذات نهار غائم جميل أثناء تجول الحاج مُزمل في أرجاءِ وضواحي مدينة "الأبيض" سائرًا فوق رمالها الناعمة والمُتَموِجة، سمِع صوت ارتطام شيء بحافةِ عصاه أثناء سيره، دنا مِن الأرضِ مُلتَقطًا ذاكَ الشيِء الغائر في الرمال، رفعه إليه ثم قربه مِن ناظِريه مُستوضحًا شَكلهُ وهَيئتهُ؛ فإذا به "إزميلٌ" جميلٌ جِدًا، لم يَرى مُزمل إزميلاً شبيهًا له قط، دار بخلده الرؤيا التي رآها قبل زمن طويل، وأخبره إمام المسجد بأنه قد يعثر على كنز والله أعلم.

أخذ مُزمل ذلك الإزميل وحمله معه لمكان عمله، نفضَّ عنه الغبار ولمعه جيدًا، ثم نظفه مُزيلاً ما عَلِق به مِن صدأ وأوساخ، فرأى بوضوح النقوش والزخارف المحفورة عليه؛ والتي كانت مرسومة بدقةٍ عالية وإتقانٍ تنبهر له العقول؛ حدث مُزمل نفسه قائلاً:

_كأنه إزميلٌ أسطوري صُنع في عصورٍ مِن الزمانِ سحيقة، بأزمِنةٍ بعيده!

تساءل مُزمل:

_ مَن يا تُرى صاحبُ هذا الإزميل الفريد!

سأل مُزمل زملاءه النجارِين في السوق متثبتًا:

_هل أحدٌ منكم أضاع إزميلاً؟

فكانت إجابتهم جميعًا لا لم يحدث!

فازدادت حيرة مُزمل، وتساءل مرة أخرى:

_إذًا مِن أين جاء هذا الإزميل! ومَن صاحبه! وجماعة النجارين كلهم قالوا بأنه ليس لديهم إزميل مفقود!

★★★

قرر مُزمل حِفظ الإزميل عنده في مكان آمن؛ لحين ظهور صاحبه المجهول.

مهارة وإتقان للعمل..

ليشَرَّع بعد ذلك الحاج مُزمل في أداء عمله اليومي المعتاد في ورشةِ النِجارة التي يمتلكها ويعمل فيها بجد واجتهاد.

مُزمل حِرَفِيٌّ بارع ونجارٌ ماهِر، قلَّ نظيره في مدينةِ "الأبَيَّض" يُجيد قطع الخَشبِ باستواءٍ تام، ويَقيسُ أطواله بدِقة عالية، لا يتغافلُ عن سنتيمتر واحد أثناء القياس، دائمًا ما كان يبتكِر ويُبدع ويتفانى في عملهِ، ويُنتِج أروع الأثاثِ الخشبي الذي يتصف بالمَتانةِ والفخامة، والجمال والرُّقيَ.

كان يَصنع أجود أنواعِ الأبواب والكراسيَّ، والأسِرَّة والطاولات والدواليب الخشبية بخبرةٍ عالية وإتقان، وبتناسق وانسجام قمة في الروعة، اشتهر مُزمل بإتقانه لعمله بإحكام، إذ كانت منتجاته تنافس المستوردة مِن سائر البلدان، يعمل بورشته الصغيرة القائمة في ناصية المكان بقلب السوق العامر، المليء بأبواق السيارات وأصوات الباعة المتجولين، والناس فيه في تهافت دائم وزحام.

بذلك السوق يوجد الكثير مِن الحِرفيين والعمال، الجميع يسعى في مناكبها، لا يتنكب عن طريق سالك يوصلهُ للقمة الحلال، والرزق الطيب، فتجد بهِ المتخصصين بإصلاح الساعات والعجلات، والخياطين والسباكين، والحداديّن والدباغين، والبنائين وغيرهم مِن أصحاب المهن والحرف المتنوعة، وكذلك تجد المطاعم في أنحاء كثيرة منه، تلك المطاعم المتخصصة بإعداد "الأقاشي" وهو شرائح اللحم المجففة المشوية المُضاف إليها بعض التوابل والمنكهات الخاصة، تلك الوجبة الشهية التي يُحب الكثيرين مِن أهل المدينة تناولها.

⋆★⋆

عُرف مُزمل بإسهامهِ ودعمه لشباب المدينة المُقبِلين على الزواجِ بكرمٍ وأريحيه وسخاء، إذ كان يُهديهم ما يَحتاجون مِن أثاثٍ منزلي بسعرٍ زهيد لا يتجاوز سِعرَ تكلِفةِ المواد، وذلك بالرُغمِ من ظُروفه المادية الصعبة.

حسناء أبيها، وجميلة جميلات المدينة..

مُزمل لديه ابنه وحيدة واسمها "هاديه" كانت مضرب المثل في حُسن الخلق والجمال؛ فهي مِن جميلات المدينة وحسناوتها اللائي يُشار إليهن بالبنان؛ فهي مضرب المثل في التواضع والأدب، والجمال والرقة، كيف لا تكون كذلك وأبوها مُزمل.. ذاك الشيخ الوقور، والحِرفي البارع، والأب المُربي، وأخوها أنس.. ذلك الشاب الهميم الغيور، الطموح المكافح، وأمها حجه النِعمة.. تلك المرأة الصابرة حسنة المعشر، عفيفة اليد نقية القلب، مواصلة الأرحام والجيران.

معظم شباب القرية يطمحون للزواج مِن هاديه ويتنافسون في التقدم لخطبتها، مِن بين هؤلاء الشباب جعفر ابن جارهم الأفندي سَلمان؛ الذي لطالما حلم بالزواج بها.

حب عفيف..

ذات صباح جميل بَهي الطلة، نادت حجه النِعمة زوجة الحاج مُزمل على ابنتها هاديه، وطلبت منها إحضار بعض الأغراضِ المُهمة مِن السوق، كان جعفر ابن جارهم الافندي معجبًا أشد الإعجابِ بهاديه، يُمنيّ نفسه بلقائها كل حين، ويتصيَّدُ الفرص لرؤيتها، يبحثُ عنها في كُلِ مكانٍ وزاوية، وفي كلِ مُنعطفٍ وناحية، يقرأها في كل بريدٍ وعنوان، يراها في كل لوحةٍ ذاتُ ألوان، في كلِ ليلٍ وسهر يترنم بذكراها، في كلِ سماءٍ وقمر يرى جمالها ومحياها، في كلِ صحوٍ وإغفاء يحلم بطيفها يزوره؛ فيشتهي لُقياها.

صوتها المخملي الناعم في أذنه له ترنيم، اسمها في وجدانهِ مُتفرد؛ كمفردةٍ نادرة في معاجمِ لغاتِ الكون؛ فهو يراها جوهرة لمعانها استثنائي بين الأشعة، حينما يسمع صوتها يطرب كأن صوتها نغمةٍ لها ترانيم إيقاعيه لم يعهدها حتى "بيتهوفن" يحلُم بطيفها يزوره "بفنتازيا" لم يألفها "دالي" فهي تُنير أرجاء فؤاده بإنارةٍ لم يخترعها "إديسون" ولها جاذبيةٍ لم يكتشفها "نيوتن".

هاديه بكل خصائصها وامتيازاتها، وبكل عيوبها كذلك وهفواتها مميزة لدى جعفر؛ فهو يراها ويُحسها أنثى مرهفة المشاعر، ومتمردة بجمالها كالوردة، راقية الحِسَّ ومِزاجيه الطِباع بِحُسنها كزهر السوسن، حانيةٌ وصاخبه بِروعتها كموسيقى الجاز، ضاحكةٌ وغاضبة ببهائها كالموجة؛ فهي بالرغم مِن تناقضها فاتِنه، هاديه في ناظرِهِ ورؤاه يشاهدها زاهيةٌ كاللون البرتقالي، حالمةٌ كالوردي، هادئةُ الطباع كالأزرقِ الكُحلي، بديعةُ الحسن كالبنفسجي، متوهجةٌ الألقِ كالأصفر، جسورةٌ مغامرة جريئة كالأحمر، غامضةٌ بعض الشيء كاللون البُني، راقيةٌ كالتركوازي، ناعمةٌ كالسماوي، زجاجية اللونِ شفافة بلحظاتِ دمعٍ غائمة.

هل للزجاجِ لون؟

نعم وبكل تأكيدٍ وتوكيد، يُصنفه فقهاء الألوان بأنه اللون الأساسي في دنيا الإشعاع؛ فهو الألماسي الجوهري الرئيسي في دائرة لونيه خاصة، يسمُونها دائرة النقاء اللامُتناهي، تصفو منابع هذه الدائرة وتزهو، وتتشكل في هيئةِ قطراتٍ صغيره تنحدر وتسيلُ على كل خدٍ التقى بدمعةٍ ذرفها إحساسٌ ما بلحظةِ صفاء.

★★★

حب ولقاء..

بالرغم مِن ذلك الحب؛ فكان جعفر مُترددًا في مفاتحتها وإخبارها بمشاعره نحوها، ظل جعفر قائمًا على زاوية الشارع القريب مِن بيت هاديه مُسندٍ ظهرِهِ للجدار، والاشتياقُ بادٍ على ملامِحه الظامئة، يَحُكُ منابت لِحيته الخفيفة بطرفِ إبهامه، يُقلب ناظريه بالمكان الذي تُطل مِن عليه هاديه مترقبًا مجيئها ومرورها به.

جعفر كان طويلاً وسيمًا، نحيلاً مُجعد شعر الرأس، مقرون الحاجبينِ وكثيفهما، قليلَ الكلامِ مُهذب الطباع، وغامِض بعض الشيء.

لم تكن هاديه مُلاحظةً لذلك الاهتمام الكبيرِ مِن جعفر، ولا تَدري بحبه لها وشغفه بها وحنينه إليها؛ فقد كان جعفر خجولاً ومُرهف جدًا، رقيق كزهرةِ (نيلوفر) وسنى غافيه على جدولِ ماءٍ مُنساب، يتراقصُ مِن فوقه الشعاع، والبريق والألق، أو هو كفراشة لاهيه مُتكئه على وردة تَنعمُ بالرحيق، هكذا كان جعفر لا يُعبر عن كوامن مشاعره الجميلة المختبئة بين أضلاعه بجرأةٍ كافية.

أقبلت هاديه إلى أن مرت مِن أمام جعفر بثوبها الأبيضِ الفتَّان، وقد انسدلت جدائلُ شعرها الحريري على كتِفيها، وجهها يُضئ كالقمرِ المشتاق، وإن بَسمتَّ تُشرِقُ ملامِحها كشمسِ الأشواق.

ظلَّ جعفر واقف بنفس موضعه ومكانه الذي هو فيه؛ فمرت به هاديه ورمقته بنظرةٍ عُجلى خاطفه؛ كأنها لمحةٌ لمسافرٍ مِن نافذةِ قطار مُسرع، سلم عليها جعفر بصوت خافت قائلاً:

_السلام عليكم، كيف حالك يا هاديه؟

★★★

توقفت هاديه بُرهة ولاحظت ما جرى لجعفر عندما رآها؛ فقد كانت عيناه تحكي الحب حينما نبض قلبه بشِدَّه، وتسارعت أنفاسه فجأة وقد أعياه الشوق؛ فاضطربت أطرافه لكأنها تتهامس بعِباراتٍ كلها نداءات وَلَه، وتوَّق واشتياق.

ردت هاديه عليه التحية:

_وعليكم السلام يا جعفر، كيف حالك وحال والدتك حجه سعاد؟

جعفر:

_هي بخير الحمد لله.

هاديه:

_لماذا لم تأتي والدتك لأمي؛ لتشتري منها الكِسرة اليوم؟

جعفر:

_إنها مشغولة اليوم.

هاديه:

_بماذا؟

جعفر:

_تُخيط معطفًا صوفيًا بخيوط الكروشيه، إنها هوايتها المفضلة.

هاديه:

_جميل جدًا.

استمر الحديث بين جعفر وهاديه، طلبت منه بعدها أن يُساعِدها في حمّل القُفه بعد أن أحضرت بداخلها مِن السوقِ "سُكر ودقيق وزيت و(دكوه) وبصل، وشيءٌ مِن الخُضار" حَمَّل جعفر عنها القُفه سريعًا بلا تلكُأٍ أو تَردُد، سائرًا بجوارها يتجاذبانِ أطراف الحديثِ برِفقٍ وهمس، ويتناوبانِ في فتح المواضيعِ والأسئلة، المهم أن لا يتوقف بينهما حوار، ولا ينقطع بينهما حديث.

تتقاصر بينهما المسافاتِ فيدنوانِ مِن بعضِهما، وتتلاشى بينهما الحواجز فيضحكانِ بلا كُلفه، في ذلك الحين اكتظت فوقهما السماء بالغيومِ المُثقلةِ الداكنة؛ ليتساقط بعدها مِن حولِهما المطر على الرمالِ؛ فتَحضنه التربة داخلها بسهوله ويُسر؛ فصار الجو بعد ذلك جميلاً مُنعشًا، وارتوى شوقهما بهطول حبات المطر عليهما، وهما سائران يتجاذبان أطراف الحديث، في تلك الأثناء اختلس جعفر بطرف ناظرِه نظراتٍ تأمل بها جمال هاديه الزاهي، باتساع عينيها المكحلتان، جدائل شعرها المخملي المُنساب، وابتسامتها الزاهية، أبطء جعفر خطاهُ قليلاً؛ فهو لا يُريد للطريقِ أن ينتهي؛ حتى يظل بجوار هاديه أطول فترة ممكنة، تَنهّد جعفر عدة تنهدات ليستَجمِع قواه المُبعثرة من وجوده بقربها هكذا، هامسًا لها:

_ما شاء الله تبارك الله، إنكِ لجميلة جمالاً يُصيِّر ذو العقلِ مجنون!

أطرقت هاديه خَجِله، وابتسمت قائلة:

_شكرًا لك يا جعفر، هذا مِن ذوقك.

★★★

اختفاء وشوق..

انقطعت هاديه مِن جعفر زمنٍ ليس بالقصير، لم تكن ترد على مكالماته الهاتفية، قلق جعفر لذلك الأمر قلقًا بالغًا، أخبرته والدته سعاد وهي لا تعلم ما يجري بينه وبينها وقتها؛ بأن أحد التجار المرموقين في المدينة تقدم لخطبة هاديه ابنة جارهم مُزمل، لكنها لم توافق بعد، حينها اطمئن جعفر عندما علم أنها لم توافق بعد، مُمنيٍ نفسه بأن يكون هو فارس أحلامها المُنتظر.

لم تلتقي هاديه بجعفر لفترةٍ طالت؛ وذلك لانشغالها مع والدتها في أمور المنزل، جعفر تواصل شوقه وتَوَّقُه لها؛ فهي لا تُفارقُ مُخيلته، ولا تغيب عن ذهنه لحظة، لشوقه لها خبايا تتجَّلى في ضحكاتٍ لها، صَفتّ بأوقاتٍ سعيدة جمعتهُما سويًا، كأنه يشعر برونق ضحكاتِها تُشجِيه وتُطربه كل حين.

صباح غنى العندليب على غصنه بأنغام الشجن، ضوء ابتسامتها ترشدهُ إلى درب شموعٍ تُضيء ليل الحزن والمِحن.

جعفر بحبه لهاديه له حرية اختيار دروب حيرته، يحمله ضباب الأماني أعلى وأعلى؛ فيشرب لبن الغيم وينغمس في شعاع الشمس إذا تجلّى، غاسلاً روحه بالندى والرذاذ؛ ليقول قلبه بإيجاز.. عيناها سر الإعجاز.

آهٍ يا هاديه، كيف يكون السكون بطعم التجلي، والاشتياق بلون التمني، اتضحت معالم العشق في قلبي، وتُوقد فانوس الذكرى بألوان فراشات قزحيه، اِصهلي واِركضي خيول الحب بهذا المضمار؛ ولتعزف كمنجاتِ القلب تراتيل أزليه.

لقد استنشقت كل ما فيكِ يا هاديه بِرئة ثالثة تضخ الأكسجين إلى أكثر نقاوة، عطرك الصيفي الساخن ألهب جبهتي بالعرق.

★★★

كانت مصادفة سعيدة عندما التقى جعفر مع هاديه بعد طول غياب، عزم على مصارحتها بمشاعره نحوها، ولطالما حدث نفسه وخاطره قائلاً:

_أنا لكِ وحدكِ يا هاديه، وما جئتُ إلا لأكون لكِ وحدك، سأحتوى بِحُبِي لكِ جميع مشاعرك وأحاسيسك، وجهكِ في ذاكرتي عصيٌّ على النسيان، ملامحك بكل جبروتها الانثوي منسوجة في خيالي بإتقان، وكذلك نَظراتِك بدلالها الحذر التي تُباغتني كالطوفان، وضحكاتك برونقها وإيقاعها الهادئ تجعلني في حالة مِن التوهان، أتمناكِ فتاة لأحلامي وشريكة لحياتي؛ فكوني أنتِ وأنا بأحلامنا لنكون سويًا؛ لنكون معًا كأجمل ما يكون، سنحلم هذا المساء معًا بحلم واحد، بأن يجمعنا عش حبٍ سعيد، آهٍ حينما تتناسخ فيما بيننا حتى الأحلام؛ فنصحو وما صحونا إلا حلم يتواصل مِن جديد، تعب انتظاري مِن انتظاري؛ فأشرقي على أرجائي لأرى أنوارك تنحدر نحوي كشلال يُروي ظمئي، ويُطفئ لهيب اشتياقي، دعيني أراكِ لوهلة لتسطع بالأفراحِ شمس نهاري، وتذكري دومًا بأني لكِ وحدكِ، وما جئت لهذا العالم إلا لأكون لكِ وحدكِ،لن تكوني يا هاديه لأحدٍ غيري، ولن أتزوج مِن فتاةٍ سِواكِ؛ وإن ظَللتـءعازبًا للأبد؛ فحُبي لكِ ليس له حدٌّ أو أمدّ، لن يَحِلَّ بقلبي غيركِ، ولن يَزُورَنِيّ سوى طيفكِ؛ فأنتِ التي ستُكونين إن شاء الله شريكة حياتي، أنتِ تاج الغدِ وإكليله، ما دام السودانُ يَجري عليه نيله يَروِي الظامئينَ سَلسَبيلِهِ.

بادر جعفر بالسلام حينما صادف هاديه في منعطفِ الطريق، قائلاً لها:

_السلام عليكم، كيف حالك يا هاديه! لماذا طال غيابك؟ هل أنتِ بخير؟

هاديه:

_الحمد لله بخير؛ فقط كنت مشغولة مع والدتي في أمور المنزل، كيف حالك انت؟

★★★

جعفر:

_بخير.

هاديه:

_لا تبدو بخير، يبدو عليك الإرهاق الشديد!

جعفر:

_ليس بي مِن بأس، فقط اشتقت لكِ.

هاديه بتوتر:

_الحمد لله أنك بخير، أعذرني.. فعليَّ الذهاب؛ ينتظرني عمل كثير في المنزل.

جعفر:

_متى سألتقي بكِ، هل أستطيع أن ألتقيكِ غدًا صباحًا؟

هاديه:

_لا بأس.

جعفر:

_سأكون في انتظاركِ بالقرب مِن شجرة السِدر هناك، عند ناصية السوق.

هاديه:

_إن شاء الله.

في صباحٍ زاهي وضّاح، التقى جعفر بهاديه بيدهِ باقة مِن الورد، قلبه يخفق بالوِد، مُتهللِ الوجه ولابد، كيف لا.. وهو في حال سرور وانشراح لأنه سيلتقي

بهاديه ويُصارحها بحقيقة مشاعره اتجاهها، عندما التقاها أوضح أيّما إيضاح؛ فقال:

_أنا أُحبكِ يا هاديه.

ذُهلت هاديه وتفاجأت بالرغمِ مِن حُبها له بجنون، ذلك الحب الذي أحسته وشعرت به ينمو في قلبها ويكبر يومًا بعد يوم، استجمعت بعدها هاديه تركيزها الذي تَبعثر؛ فشَرّعت تُعَبِر؛ فقالت بصوتٍ هامِس لجعفر:

_وأنا أيضًا.

تعلوها في ذلك الحين ابتسامة دافئة، ونظرةٌ خَجلة وهي مائلة جانبًا برأسها، إلى أن لامس خدها كتفها وهي خافضة طرفها باستحياء، طلب منها جعفر إعادة ما قالت؛ لعلها تصيغ الجملة التي قالتها صياغة أخرى تؤكد له ما قالته وتُطَمئِنه أكثر؛ فقالت له:

_وأنا أيضًا أُحبُك يا جعفر.

جعفر:

هل تَقبلين الزواج بي يا هاديه؟

ظلّ جعفر يترقب إجابةً ِمن هاديه وهي مِن شدّةِ فرحها واجِمه، قد أعياها التعبير، تحدّرت على خديها دمعاتُ السرور الذي كان باديًا على ملامحها؛ فتهلّل وجه جعفر وقال لها:

_السكوتُ علامةٌ تَدلُ على الرضا، هل أنتِ راضيةٌ ومُوافِقه على الزواج بي يا هاديه؟

هاديه مُبتسمة:

_نعم، أنا موافقة.

لا تسأل عن حال جعفر، صار المكان الذي عليه لا يَتسع لفرحهِ، وكذلك الثواني والدقائق لا تُسعفه للتعبير عن سروره وطربه.

جعفر:

_سأُعلم والداي بذلك؛ فنجئ ونتقدّم لِخطبتّكِ رسميًا مِن أبيكِ في أقرب وقت ممكن.

زواج ولكن!

ذهب جعفر إلى بيتهِ مهرولاً مُستَبشرًا لكي يُفاتح والداه بموضوع زواجه مِن هاديه، دخل المنزل فوجدَّ أمه وأبيه الأفندي سَلمان جالِسانِ على الأريكةِ، أمامهُما ابريق قهوَتِهما وهُما يشربان منها، حدث جعفر نفسه:

_اليوم أبي وأمي مزاجهما مُعتدل، هذا أنسبُ وقت أخبرهم فيه وأطرح عليهم موضوع زواجي مِن هاديه.

جلس جعفر بجوارهما بعد أن سلّم عليهما مُطمئنًا على حالهما، وأستأذنهما في الجلوس معهما ومشاركتهما شُرب القهوة، سكبت له أمه فنجان قهوته قائلة:

_ليس مِن عاداتك شرب القهوة، ونادرًا ما تشتهيها؛ لابدّ أن لديك موضوعٌ هام تريد قوله.

جعفر:

_هذا صحيحٌ يا أمي، فعلاً لدي موضوعٌ هامٌ جدًا أريد طرحه.

سعاد مبتسمه:

_قُلّ يا ولدي، كلي آذانٌ صاغيه.

★★★



جعفر:

_قد نويتُ أن أتزوج.

دنا الأفندي سَلمان بوجهه صوّبَّ ابنه جعفر وهو جالس على الأريكة، ورمقه بنظرةٍ فاحصةٍ مُتفحصة، مُسندًا يده اليمني على عصاه العاجية بيُسراه، عَدَّل موضع نظارته سريعًا مُندهشًا ومُستغرب، وهو مترقب إجابه مِن جعفر على سؤاله الذي سيطرحه عليه؛ إذ قال له:

_ومَن الفتاةِ التي سَتت..

لم تلبث أن قاطعته زوجته سعاد في تلك الأثناء، مُخاطبةً ابنها جعفر وهي باسمه الثغر تنظر إليه بحنان، مُحركةً سبابتها لوهلةٍ يسيره مُذكِرةً له؛ فقالت:

_ليس هنالِك أفضل مِن "نِسرين" ابنة عمِك الدكتور "حماده".

حينها ملامحُ جعفر التي قد كانت نضرةً ذَبُلت فجأةً وتَغيّرت، وابتسامته التي كانت مستبشرة، انزوت مِن على شفتيه واضمحللت؛ فقال:

_ليس هذا ما كنتُ أعنيه يا أمي؛ فلقد جئتُ لكي أخبركم بأني أريدُ الزواج مِن هاديه ابنة جارنا مُزمل.

دارّت حَماليق عيني والده الأفندي؛ فاستجمع ما بفمه مِن ريق، وصاح بأعلى صوته مُغضبًا ناقرًا بعصاه بِلاط الغرفةِ بعصبيةٍ شديدة؛ فقال:

_ كيف تتزوج مِن فتاةٍ أبوها يعملُ نجّارًا، وأمها تَبيعُ "الكِسّرة" مجنونٌ أنت يا ولد أم ماذا؟!

تشَنجتّ الأجواء مِن حول جعفر وتوترت، وبفمه الحروف تعطلت، كيف له أن يُقنع والديه، وكيف له أن يُبررَ موقفه، وما عساه يقول وقد رُفضت فكرة

زواجه مِن هاديه وشمسها آذنت في سمائهِ بالأفول، لا.. هذا غيرُ معقول؛ فقال قول صدقٍ حوّى كل البدائع والروائع، كأنما انعتق في تلك اللحظة مِن فمه مليون عصفورٍ مُغرّد:

_لكنَّي أحبها يا أبي، أُحبها.

كررها ثلاثًا وعيناه تذرفان الدمع:

_ولن أتخلى عنها.

الأفندي:

مِن هذا اليوم فصاعدًا عليك أن تكرهها، ولا تذكر لي اسمها بعد الآنِ أبدًا.

جعفر:

_لماذا أنتَ رافضٌ يا أبي فكرة زواجي مِن هاديه؛ بالرغمِ من أنها فتاةٌ مهذبه؟!

الأفندي:

_لا يمكنك أن تتزوج مِن فتاةٍ أبوها نجار، وأمها تبيعُ "الكِسرة" مستحيلٌ أن أوافق على هذا.

جعفر:

لكن يا أبي، الفقرُ ليس عيبًا!

الأفندي مُخاطبًا سعاد مُحذرًا:

_مِن الأفضل أن تُكلمي ابنك هذا، إن تحدث معي مرة أخرى بهذا الموضوع لن يحدث خيرًا.

سعاد:

_أطِعِّ أباك يا ولدي؛ فهذا في صالِحك.

خرج مِن عندهما جعفر حاله يُغني عن سؤاله، مُرددًا:

_حاضر يا أمي، حاضر يا أبي.

انطفاء..

عصفت بجعفر أعاصيرُ الكآبةِ والحزن، انقطعت أخباره عن هاديه رُدهة مِن الزمن؛ فلم تعُدّ تراه ولا هو يراها، تساءلت هاديه:

_ماذا يا تُرى حصل لجعفر، هل هو بخير؟

ماذا يا تُرى سبب انقطاعه عني طِوال هذه المُدّة؟!

كانت أحوال جعفر تزداد سوءً يومًا بعد يوم، باديًا على ملامحه الحزن والإعياء، ملامح هاديه لا تغيب عن فِكره أبدًا، وذِكراها لا تُفارقه؛ فكانت ابتسامتها تُعانقه، وعيناها تُسامره، يسأل نفسه ويحاور خاطره:

_كيف لي أن ألتقي بكِ يا هاديه وأخبركِ بالذي جرى! كيف لي أن أُخبركِ بأن أحلامنا قد ضاعت سُدى، وآمالنا طواها المدى، كيف لي أن أخبركِ بأن والداي قد رفضا فكرة زواجي منكِ، وكيف سيكون تأثيرُ ذلك عليكِ؛ فأنا لا أريدُ أن تحزني أو تتألمي بسببي؛ سأختفي عنكِ يا هاديه ليس أمامي خيار، سأظل قابعًا خلف جدران غرفتي، أحدثُ مِزهرياتها عن أشجاني، وأكلم نوافذها عن أحزاني.

ظل جعفر بهذا الحالِ طويلاً لا يهنأ بنومٍ أو طعام، هائمًا بالعشقِ يرتقي بالحبِ أعلى المراقِ، يصعد به الألم إلى فضاءٍ سامي، فيه التحليقُ بلا أجنحة، والكلماتُ بلا كُلفه، والخيالُ بلا استدعاء، والموسيقى بلا آلات، والابتسامات بعَفويه، والخطبُ بلا تنميق، والسياسة بلا كذب، والملوك بلا حُرَّاس، فضاء به الحب بلا وردٍ خادع يُستطاب، والغناء بحناجر الإحساسِ يُطرب.

★★★

ظلَّ جعفر يسمو بالألمِ ويتَّطهر بالدموع لبضعة أشهر، كان ذهابه للجامعة أصبح نادرًا بالرغمِ مِن كونه كان شديد الحرص على الحضور مجتهدًا فيما مضى، تدهور مستواه الدراسي وتناقص مُعدّله بسبب غيابه المتكرر، بالرغم مِن كونه كان على وشكِ التَخرُّج مِن كليةِ الهندسة؛ فقد تبقت له أشهر قليله وتنتهي فترة دراسته الجامعية.

رسب جعفر في عِدة امتحانات ولم يتمكن من اجتياز عدة اختبارات، إلى أن تم فصله مِن الجامعة لضعفِ مستواه.

لم تكن هاديه تدري بالذي جرى لجعفر؛ فقد كان جعفر كتومًا جدًا لا يُفضفِض ولا يَبوحُ بأوجاعه وآلامهِ لأحدٍ كائنًا مَن كان؛ حتى إن كانت حبيبته هاديه!

في ظلِ ذلك الانقطاع والغيابِ الطويل مِن جعفر، اعتقدت هاديه بأنه تعرف على فتاةٍ أخرى وتركها؛ فشاورت أمها حجه النِعمة وحكت لها قِصتها مع جعفر؛ فأوصتها بالتريثِ وعدم العجلة في الحكمِ عليه وعلى مدى صدقه وجِدّيته، قائلة:

_الغائب عذرهُ معه، قد تكون لديه ظروف أو أسبابٌ مُقنعه.

وكذلك شاورت هاديه والدها وأوضحت له بأن جعفر ابن جارهم الأفندي سَلمان قد صارحها بحبه لها وطلب الزواج منها؛ لكنه اختفى بعد ذلك في ظُروفٍ غامضة.

فقال لها:

_يا ابنتي كل شيء قسمة ونصيب، إن كتب الله لكِ الخير بزواجكِ منه؛ فسيتم على خير، وإن كان زواجكِ منه فيه شرٌ لكِ؛ سيَصرِفه الله عنكِ، فقط انتِ صلي صلاة الاستخارة وأوكلي أمركِ لله.

علِم الأفندي سَلمان بنبأ فصل ابنه مِن الجامعة؛ فثار غضبه وانزعج أيما انزعاج؛ فقرر الذهاب لمُزمل في بيته؛ ظانًا بأن هاديه ما زالت متواصلة مع ابنه؛ مما تسبّبَ في انشغاله عن دِراسته.

جاء الأفندي لمنزل مُزمل - مُغضبًا - طارقًا بابه الصغير بشِدَّه، كان الأفندي رجلاً مُتَغطرِسًا مُتَكَبِّرًا، غير محبوب لدى جيرانه ونادرًا ما يزورهم، فتح مُزمل الباب مُندهِشًا مِن مَقدم الأفندي المُفاجئ، لكنه استقبله بِبشاشته المعهودة، لم يُبادله الأفندي تلك الحفاوة، وتجهم في وجههِ قائلاً:

_كل الذي حصل لولدي سببه ابنتك التي لم تُحسِن تربيتِها.

مُزمل بهدوء:

_ما الذي حصل منها يا سعادة الأفندي؟

الأفندي:

_ابنتك هاديه خدعت ابني وجعلته يتعلق بها وأهمل دراسته بسببها؛ إلى أن تم فصله مِن الجامعة، أيُرضيك هذا يا مُزمل؟

مُزمل:

_أريدُ أن أوضح لك نقطتين يا سعادة الأفندي، أولاً: ابنتي هاديه قد رَبيُّتها أحسن تربية.

ثانيًا: دراسةُ ابنك وتعليمه شيء يَخصه هو ويرجِع إلى مدى اجتهاده، ما دخل هاديه بذلك؟!

الأفندي:

_نعم صحيح؛ فأنت نجَارٌ جاهل لا تدري شيئًا عن التعليم، أنا مخطئٌ لأني جئتُ إليك وأخبرتُك بهذا؛ سيكون لي مع جعفر كلامٌ أخر.

بدأ صبرُ مُزمل ينفدّ مِن وقاحةِ وعجرفةِ الأفندي، لكنه آثر عدم رد الإساءةِ بمثلِها قائلاً:

_سامحك الله يا حضرة الأفندي، على العموم أنت في داري، والذي يدخل دارنا فإنا نُكرمه ونُعامله معاملة حسنه، بغض النظر عن كونه يستحق تلك المعاملة أم لا.

فحمَّل الأفندي نفسه وخرج بهدوء؛ بعد أن نزلت عليه كلماتُ مُزمل كالصاعقة.

رحمة وعطف..

مرِض جعفر مرضًا شديدًا، أُصيب على إثرِه بغيبوبة ونُقل إلى المستشفى، بدأ الأفندي يَرِقّ رِقةً شديده لما جرى لابنه الوحيد جعفر؛ مما جعل مَوقفه يتبدَّل إزاء زواج ابنه مِن محبوبته هاديه، أثناء فترة الغيبوبة التي مرَّ بها جعفر جعل يهذي لاهجًا باسم محبوبته هاديه، في ذلك الوقت كان بِجواره أمِه وأبيه، بدأ جعفر يُفيق شيئًا فشيئًا مِن غيبوبته مُحركًا جِفنيه ببطء، أثناء ذلك دنا منه والده يتبيّن حاله؛ فبدأ جعفر يتحسّسُ وجه أبيه وأكتافه بلطف، وناداه باسم محبوبته هاديه، ابتسم سلمان الأفندي قائلاً لسعاد مازحًا:

_ما هذه المصيبة التي وقعنا بها، إنه يُناديني باسم هاديه!

في هذه الأثناء أفاق جعفر بشكلٍ كامل مِن الغيبوبة؛ فانكبت سعاد على ابنها تَلثُمه وتُقبله، والدموع على خديها، قائلةً له:

_سنُزوجَّك بهاديه، فقط تعافى وقُمَّ سالمًا.

فإذا بجعفر بِمشقةٍ يعتدَل جالسًا على طرف السرير، متكئًا على ذراع أمه قائلاً:

_هل أنتِ جادةٌ يا أمي؟!

سعاد ودموعها على خدِها:

_نعم يا ولدي.

ابتسم الأفندي قائلاً لجعفر:

_بشرط أن تُكمِل الشهور المتبقية لك في الجامعة، وتتخرج بمُعدَّلٍ عالي.

جعفر:

_أعِدُك يا أبي، سأعود وأواصل ما انقطع مِن دراستي وأتخرج إن شاء الله بمرتبةِ الشرف.

الأفندي:

_وفقك الله يا ولدَّي.

أرخى الليل سدوله وجعفر قد ظل مطمئنًا، قد اكتست ملامحه بالسرو، نامت سعاد في السرير المجاور لولدها في غرفةِ المستشفى، وأسندَّ الأفندي يديه وجَبينه على عصاه وغفى، واسترسل بعدها في النومِ على هذه الهيئة.

استقرت حالة جعفر وبدأت تتحسن شيئًا فشيئًا، وهو يُمَني نفسه بلقاء هاديه بعد تعافيه، تَحدوه الأشواق ببريقها المتلألئ، حينها جادت شفاهه ببسمةٍ مُقمره، جمعت الأحلام في كأسِ الرؤى، وانتشى الغمام بذاك الشذى؛ فهطل

الغيثُ على أرجائه المُقفرة زخاتٍ زخات، ارتوت به روحه وزهت في مروجها زهور المسرات؛ فكان يراها رغم بعد المسافة، ويترقب لقياها بلهفة، تخيلها مرتديه فستانها الحريري وداخلهُ تلمع النجوم المختبئة في سماء جسدها المخملي، رآها جعفر بخياله التي هي حاضرة فيه على الدوام، باسمة زاهيه، لاهية صافية.

ظل جعفر يُحدث نفسه بها ويُمنيها:

_يا محبوبتي هاديه سنلتقي؛ سنلتقي في مساءاتٍ ريفيه وليالٍ شاعريه، سنلتقي في عيونِ الأطفالِ الراقصة تحت أضواء القمرِ الفِضية، سنلتقي في فضاءات هائلة مُزدحمة بالنجومِ المتألِقة، سنلتقي في ضحكاتِ الفراشات ببساتينِ الزهور، سنلتقي في كل سحابةٍ مُثقلة بالندى، سنلتقي في ظلالِ "التبلدي" وشدَّوِ القماري؛ سنلتقي عند أضواء الفوانيس ودخان شاي الصباح، سنلتقي في ذكرياتِ الأحاجي الطفولية، وفي فرحِ الأبواب بدخول الأضياف، سنلتقي في جمال ليالي السمر فوق التلال الرملية، سنلتقي.

ربيع الأمنيات..

خرج جعفر مِن المشفى في أوفرِ صحةٍ وأتمِ عافيه، تُسابقُ خطاه الطريق المؤدي للمكانِ الذي تعود أن يرى فيه هاديه بجوارِ شُجيرةِ "السِدِّر" الوارفة، القائمة بزاويةِ الشارع الرئيسي المؤدي للسوق، ظلَّ جعفر جالسًا تحت الشُجيرة مُداعبًا حبات الرملِ مِن تحته بأصابعه، مُترقِبًا ظهور هاديه ومرورها به.

كان للمكان عبقٌ فواح بأريجِ ذكرياتٍ شذية تُنعشُ روحه وتُذكره بأيامِ تلاقيه بهاديه حيثُ كانا يجلسانِ سويًا ويتسامران، ظلَّ جعفر يستنشقُ ذلك العبير؛ فأغمض عينيه في سكون مُحاولاً بذاك استرداد كل ذرة أكسجين نقيه تنفسها

مع هاديه في ذلك المكان؛ ليعود إلي رئتيه مرةً أخرى ذلك الهواء المنسجم بالحبِ والتآلف؛ ليَحتَضِنَهُ طويلاً بين أضلاعه.

فيَنعَّم بدفء تلك الأحاسيسِ المُرهفة، والمشاعرِ الراقيةِ المُذهبةِ بالبريق، يهفو فؤاده لتلك التحيات التِلقائيةِ التي تَزُفُ إليه الأشواقَ بعَفويةٍ، حينما القلوب لم تكن مجرد مضخات تضخُ الدمَ إلي الأوعيةِ والشرايين، كانت تَضُخّ أيضًا الألفة والطيبة، والحنان بوفرةٍ غامرة.

هي معانٍي لا تُصورِ روعتها ريشةُ الفَنَّان؛ فكانت هذه المشاعر أطيَّب إدام لهما تَغذّت به الأرواحُ قبَّل الأبدان، نقاءٌ عالي يَشعُر بالراحةِ له الوِجدان، أوِ هل للبنفسجِ أيادي قويه!

تَقشع عن سماءِ الضباب كُتَّلَ الكراهيةِ المُثقلةِ بالمطرِ الحِمضيَّ الذميم، ولعناتِ الأسلحةِ لتَترنَّم القلوب بأطايِّبِ الحُبِ، لا بالقعّقعاتِ والفرقعاتِ، والجَّعجّاعاتِ والمُفرّقعاتِ حول سبائكِ الذهب؛ لتشدو حينها في أرجائنا أغانٍ فرائحيه مدوزنة بإيقاعاتٍ مُتناغمة، ومصفوفةٍ كبراعمِ الوردِ على أغصانِ العافيةِ.

أقبلَّت هاديه تزهو الرياحُ بفستانِها، وتَخضَوضِرُ الجدباءُ بوطءِ أقدامها، وجعفرُ في انتظارها شوقه يُسَابِقُ أشواقًا كقُبلةٍ ترجو عِناقًا؛ فجلست بجواره تحت شجرةِ "السِدرّ" التي تحتوِيهما بظلالها.

حدثها جعفر بما كان؛ فبكت، وبما سيكون؛ فضحِكتّ، ما أروعه مِن مشهدٍ حينما يَمتَزِجُ الضَحِكُ بالبكاء، واللهفةُ باللقاء.

ظلَّ جعفر يحدثها بأن الطريق أمامهما طويلٌ طويل، وحدها يداها هي التي تُنير وحشة الدروب ذات المتاهات المُتعرجةِ، يدًا بيد سنُكمل مشورانا المُضني،

★★★

ونُبحّرُ إلى برِ الأمانِ والابتسامةِ، يدًا بيد نُودِّعُ لجج الأبحرِ العقيمةِ والأعاصيرِ المُعَّربدةِ، والألوانِ الباهِتة.

هاديه يا أخت أقواسِ قُزح، ويا أم الربيعِ، وبنت الألوانِ الزاهيةِ، لا تغيبي عني حتى يأتي العيدُ والأمل، بعيدٌ عنكِ أنا منفيٍ في زحل.

سنزرعُ الحب أشجارًا، يُروِيها خريفُ الشوقِ دموعًا وألحانًا، ونرسم العشق سِرياليًا ومجنونًا، ألوانٌ تَزُفُ للكونِ ألوانًا؛ فلتتشابك مِنا الأيادي أكثر وأكثر، ولتتلاقى أضلاعنا لقاءٌ فيه خشونةٌ لا تعرفُ التراخي؛ فالمرحلةُ المُقبلة تحتاجُ مِنا التحامًا تامًا، يليه صِدامٌ بكلِ العقباتِ الزائفة والمستحيلاتُ الواهية، التي تنزاحُ بهمسةٍ صغيرةٍ مِن شفتيكِ، ولمسةٌ ناعمةٌ مِن يديكِ.

طال جلوسُ هاديه مع جعفر؛ فالحديثُ بينهُما ذو شجون، والحكايات لا تنقضي، مالت هاديه مُتكئه على كتفِ جعفر، ها هي الآن والآن هي بِجوارِه، وكزهرةٍ وسنى على كتفه اطمأنت، وقد ظل يُداعبُ خصلاتِ شعرٍ بأريجِ "الغاردينيا" تحلّى.

إنساب ليل شعرها المتدلي كجدولٍ مخملي بين أصابعه؛ فارتجف قلبه فرحًا يصرخ يا زمان الأمنيات مُر بطيئًا فالعمر قصير، ها هي الآن والآن هي بجواره مُتَكِئه عليه وهما تحت شجرة "السِدر" الوريف، لم يكن حينها جعفر عابئًا بنظرات العابرين وهم يرمقونه شذرًا؛ فلقد سرّى بهِ الحب عاليًا جائلًا في رحابِ مجرةٍ بعيده، ألا أيها المارون على حُبنا ألقوا عليه التحية والسلام، آهٍ كم تَخشَون وجود عاشقٍ على الطريق، ولا تخافون صولة قاتلٍ طليق، العاشق يُهدِيكم الرحيق، والقاتل يُهدِيكم الحريق.

★★★

تحسنت أحوال جعفر واستقر أيما استقرار بعد تلاقيه بهاديه وخروجه مِن المستشفى، سألته هاديه عن سبب انقطاعه عن الدراسة قائله:

_أخبرتني والدتك بأنك لم تعد تذهب للجامعة، لماذا يا جعفر! هل تريد إضاعة مستقبل دراستك؟

جعفر:

_للأسف تم فصلي مِن الجامعة بسبب غيابي المتكرر عنها.

هاديه:

_حاول أن لا تيأس، حاول مرة أخرى، تقدم بطلب استرحام لإدارة الجامعة.

فعل جعفر وتقدم بطلبٍ لإدارة جامعته مُوضحًا فيه رغبته الجادة باستئنافِ دراسته فيها، نظرت إدارة الجامعة في طلبه الذي جاء في الوقتِ المناسب؛ فقد صادف أن عقدت الجامعة اجتماعًا هامًا قبل ذلك، أوصت فيه بالتعهد والرعايةِ للطلابِ المفصولين، خاصةً الذين كان مستواهم الدراسي جيدًا وتدهور فجأة؛ لأنه عادةً ما يحدث ذلك التدهور المُفاجئ بسبب ظروفٍ طارئه أعاقت تقدم الطالب وتفوقه الدراسي، كانت خلاصة ذلك الاجتماع أنه إذا جاء طلب لاستئناف الدراسة واستوفى الطالب المُتَقدِم للطلب للشروطِ اللازمة؛ فإنه يترتب على إدارةِ الجامعة ومجلس أساتذتها، استقبال الطلب والنظر فيه، ثم قبوله بشرط تعهد الطالب تعهدًا مكتوبًا وموقعًا باسمهِ على الجدية والانتظام، والمثابرة والاجتهاد في الدراسة.

نتيجةً لذلك الاجتماع الذي قد عُقِد قبل طلب جعفر لمواصلة واستئناف دراسته، بعد أن قام بالتوقيع على ذلك التعهد المطلوب، في حال عدم التزامه بمقتضى التعهد؛ فإنه سيُفصل فصلاً نهائيًا لا رجعة فيه.

★★★

بعد ذلك عاد جعفر لمواصلة دراسته بكلية الهندسة بهمةٍ ونشاطٍ كبير، وبعزيمةٍ نافذه لا تعوقها العوائق، ولا تُثبِطُها المُثبطات.

مرت الشهور سريعًا ليتخرج بعدها جعفر بمرتبة الشرف مِن الجامعة وبأعلى المعدلات، وافيًا بوعده لأبيه مُفرحًا أمه، أخبر جعفر هاديه ودعاها لحفلٍ صغير بمناسبه تخرجه، تناقشا بعد الحفل وهما يخططان لحياتهما المستقبلية.

أخبرته هاديه بأن عليه أن يخطو خطوة جادة في سبيل الزواج بها، وإلا أنها ستصرف النظر عنه حالاً؛ فقد انتظرته طويلاً.

سعى جعفر باحثًا عن وظيفة، تقدم للعمل في شركة هندسيه رائدة، بعد مرور عدة أشهر اتصلت به الشركة، وأخبرته بالموافقة على طلبهِ، وعليه بالحضور للمعاينة ثم إمضاء عقد العمل، تم قبول جعفر في الوظيفة؛ إذ تم تعيينه مشرفًا هندسيًا، سُرعان ما تطور جعفر في عمله وأثبت كفاءة ومهارة عالية في إنجاز المهام التي توكل إليه.

قام جعفر بالترتيب لزواجه مِن هاديه، وقام بكل المتطلبات، لم يتبقى أمامه إلا تحديد موعد الزواج.

ذهب جعفر في جلسة تشاوريه مع أهل هاديه، واقترح عليهم أن يتم الزفاف بعد شهر مِن الآن، وافق الجميع على ذلك وشرعَّوا في التبريك له مع أطيَّبِ الأمنيات.

صلة وتواصل..

أخبر مُزمل أخاه "متوكل" الذي كان مقيمًا في "الخرطوم" بأن زواج ابنته هاديه قد دنى وأوشك، واقترح عليه أن يأتي إليه ويزوره، ويقضي معه بعض الأوقات.

★★★

وصل متوكل بعد أن عقد الرحال مسافرًا مِن الخرطوم، جاء ويداه معبأتانِ بالأكياسِ فيها الخضار، والفاكهة.. مِن برتقالٍ وموز ومانجو، وشيئًا مِن المعلبات.. مِن مُربى وزيتون وساردين، وكذلك أصناف متعددة مِن الحلويات، وعلبة كبيرة مِن مسحوق عصير التانج.

وقف متوكل أمام باب مُزمل طارقًا الباب ومُتَنَحنِح قائلاً:

_السلام عليكم يا أهل الدار.

صوته الجهوري الأجشِ كان مألوفًا لجميع مَن في الدار، أجابته حجه النِعمة:

_تَفضّل يا متوكل، مرحبًا بك وأهلاً.

دخل متوكل، وفي ذلك الحين ظهر مُزمل مُعانقًا أخاه سائلاً عن حاله وأحواله، معبرًا عن شوقه له قائلاً:

_ كيف حالك يا متوكل، وكيف حال أبنائك؟

متوكل:

_بأفضل حال الحمد لله، دائمًا ما نسأل عنكم.

مُزمل:

_سأل عنك الخير، تفضل ادخل الصالون.

دخل متوكل الصالون المُرتب الأنيق؛ ليجد وجبة حجة النِعمة جاهزة والصينية قد وضعت لتوها على الطاولة، أعدت لهم حجه النِعمة العشاء به ما لذ وطاب مِن الأطعمة، كالفول بالسمن، و(العصيدة) بملاح (الروب) وسلطة الخضار، وسلطة (الأسوَّد)، و(الشيَّة)، ومعها جميع المُقبلات، كالشطة الخضراء (بالدكوة) والليمون، وشرائح البصلِ الأبيض اللذيذ.

* * *

اجتمع أنس ومُزمل ومتوكل على الطاولة ليتناولو وجبة العشاءِ الشهية، مُزمل مُخاطبًا متوكل:

_لما لم يأتي أبنائك معك؛ ليقضوا بعض الوقت مع عمهم وأبناء عمهم؟

متوكل:

_لقد أصروا على المجيء معي، لكن مع ربكة المدارس وانشغالهم الدائم بالدروس، أصبح مجيئهم صعبًا.

مُزمل:

_لقد اشتقنا لهم.

متوكل:

_لقد وعدتهم مع بداية الإجازة؛ سأجيئ بهم لزيارتك ولقضاء بعض الأوقات معكم.

في هذه الأثناء اضطجع متوكل في السرير بعد شُربه للشاي، وسمره مع مُزمل وسرعان ما غطَّ في نومٍ عميق؛ فقد كان مرهقًا ومُنهكًا مِن وعثاءِ السفر، وجلسته الطويلة في الباص.

لم يوقظه مِن النوم إلا الآذان الثاني لصلاة الفجر، نهض وتوضأ وذهب مع أخيه مُزمل؛ لتأدية صلاة الفجر في المسجدِ المجاور.

ليعودا بعد ذلك ويجلسانِ على (البِرِش) يتسامران في الحوش الرحيب الذي بمنزل أخيه مُزمل، ذلك الحوش الواسع المفروش بالرملِ الناعم، تُزينه شجرة الليمون الوريفه.

⋆★⋆

استراح متوكل لهذه الأجواء وبدى على ملامحه السرور والاسترخاء، قال له مُزمل:

_أعرف يا متوكل بأنك تُحب الجلوس في الحوش.

متوكل مبتسمًا:

_نعم، أجيء إليك خصيصًا لأنعم بهذا النسيم العليل؛ فقد مللتُ مِن بيوت الخرطوم الضيقة، والشقق المُقفلة.

في هذه الأثناء أعدت لهما حجه النِعمة الشاي باللبن المُرصع بقطع الزلابية الذهبية المستديرة، مرشوش عليها السكر الناعمِ المسحون؛ فظلا على حالهما جالسين وهما يشربانِ الشاي، والفجر يغمرهما بأضوائه الزرقاء الحالمة.

لتبزغ بعد ذلك الشمس شيئًا فشيئًا، تُكلِلَّ الأفق بالسنا والبهاء، وهما يتسامران وقد استرجعا بعض ذكرياتهما القديمة في أيامِ صِباهُما الأولى، في حوارٍ طال بينهما..

متوكل:

_على زماننا الحياةُ كانت بسيطةٌ وسهله، ومع ذلك كانت ممتعة.

مُزمل:

_الوقت بذلك الزمان كانت فيه البركة.

متوكل:

_أما الآن أي شخصٍ تسأله عن حاله، يقول لك بأنه يركض ويجري.

مُزمل:

_هل حقيقة الناس قد كثرت مشاغلهم، أم أن الزمان صار ممحوقًا؟

متوكل:

_لا أدري، لعله بسبب تسارع إيقاع الحياة.

مُزمل:

_ربما يكون هذا هو السبب.

صمت مُزمل لوهلة وقال:

_هنالك أشياء كثيرة يا متوكل كأنها انعدمت واختفت مِن حياتنا تمامًا، أين (الطِليسة) وأين(المشلعيب) و(البُخسة) و(الكنتوش)؟

أكمل مبتسمًا:

_وأين (العُمره) وكذلك (الريكه) و(الشّنَّه)؟

متوكل:

_مثل هذه الأشياء يجب أن يُحتفظ بها في المتاحف؛ فهي تعتبر قطع أثرية تحكي عن أشياء عاشت ثم بادت.

مُزمل:

_على ذِكرِ الأشياء القديمة والأثرية؛ فقد ذكرتني بذلك الإزميل الذي وجدته مخفيًا في الرمال قبل فترةٍ طويلة.

متوكل:

_أين هو؟

مُزمل:

_سأجلبه لك لكي تراه.

★★★

ظلَّ متوكل باندهاش كبير يتفحص الإزميل ويُقلبه في يده؛ لكأنه يستحضر ذكرى بعيده جائلة في خاطرِهِ، سأله مُزمل:

_كأنك عرفت هذا الإزميل! مَن صاحبه يا متوكل؟

متوكل:

_هذا الإزميل ليس غريبٌ عليّ، رأيته قبل ذلك.

مُزمل:

_أين ومتى؟!

صمت متوكل لوهله يتذكر، ثم قال:

_نعم، لقد تذكرتُ يا مُزمل، تذكرت.

مُزمل:

_ماذا تذكرت؟

متوكل:

_ رأيت هذا الإزميل عند شخصٍ إيطالي يُدعى "لويس" هذا الرجل كان يعيش هو وابنه الذي يُدعى "فابيو" هُنا في مدينة "الأُبيَّض" كان ذلك منذ زمن طويل جدًا.

مُزمل:

_ كم مِن الوقت مر على هذا؟

متوكل:

_مر عليه حوالي ثلاثين عام.

★★★

مُزمل:

_ وأين هذا الرجل الآن، هل ما زال على قيد الحياة؟

متوكل:

_لا أدري؛ فالرجل اختفى في ظرفٍ غامض.

مُزمل:

_ كيف ذلك؟

متوكل:

_بعض الناس قالوا بأنه تُوفي أثناء ارتحاله للخرطوم، وبعضهم قال بأنه عاد إلى موطنه إيطاليا.

مُزمل:

_مُحير أمر هذا الرجل.

متوكل:

_لكني أرجح بأن جهة ما تلاحقه؛ فقد كان دائم القلق كأنه يتوجس من أمرٍ ما.

مُزمل:

_وأين كان منزله؟

متوكل:

_كان يسكن في الضاحيةِ القريبة مِن الجبل.

مُزمل:

_هذا نفس المكان الذي وجدت فيه الإزميل.

متوكل:

_نعم، رأيته يعمل بهِ ذات مرة؛ فقد كان نحاتًا.

مُزمل:

_هل كان بحوزته في ذلك الوقت؟

متوكل:

_نعم كان بحوزته.

مُزمل:

_متأكدٌ أنت مِن ذلك؟

متوكل:

_لا أنسى شكل ذلك الإزميل وهو في يد لويس وهو ينحت بهِ تماثيله التي كان يصنعها.

مُزمل:

_أي نوعٍ مِن التماثيل كان ينحت؟

متوكل:

_معظمها تماثيل خشبيه على أشكال التماسيح، الزرافات، الغزلان، الأفيال ووحيد القرنِ وغيرها.

مُزمل:

_على هذا؛ فقد كنت تعرفه جيدًا.

★★★

متوكل:

_كنت أقضي معه وقتًا طويلاً؛ فقد كنتُ شغوفًا بتعلم فن النحت.

مُزمل:

_هل علمك لويس النحت؟

متوكل:

_علمني بعض الأساسيات المهمة، وقدم لي بعض النصائح، قال لي ذات مرة عندما أراني هذا الإزميل الذي هو عندك الآن:

"هذا الإزميل حُفرت به معالم حضارة على يد رجل رائد، نهضت بفكرِهِ مِن نومها بلادي"

مُزمل:

_مَن هذا الرجل الذي كان يعنيه بكلامه يا ترى؟

متوكل:

_لا أدري؛ فلم أسأله عن ذلك.

مُزمل:

_على هذا؛ فقد كنت تحب النحت كثيرًا.

متوكل:

_نعم، لكن عندما أخبرني أستاذي في المدرسة الثانوية بِحُرمة التصاوير توقفت عن ذلك واتجهت للتجارةِ، والحمد لله أغناني الله بالتجارة، تحسنت أحوالي كما ترى.

* * *

مُزمل:

_ ونِعم بالله؛ فمَن ترك شيئًا لله أبدله الله خيرًا منه، كما في معنى الحديث، هل مِن أبنائك مَن هو شغوف بالفنونِ مثلك حينما كنت شابًا؟

متوكل:

_نعم، ابني الأصغر "رائد" عنده ميول إبداعية؛ فهو يحلم بأن يكون مهندسًا معماريًا بارعًا في المستقبل.

مُزمل:

_هذا جيد، شجعه على هذا إذًا.

متوكل:

دائمًا ما أحفزه بهدايا لها صلة بشغفه المعماري؛ فقد جلبت له أشكال ونماذج مُصغره لأجمل المباني؛ كمسجد النيلين في الخرطوم، وأهرام البجراوية في شمال السودان، ومِن المعالم المعمارية العالمية جلبت له نموذج مُصغر لبرجِ إيفل في فرنسا، وتاج محل في الهند، وسور الصين، وغيرها مِن التحف الهندسية.

مُزمل:

_هذا أجمل تحفيز تهبه له، أنت خبير في هذا يا متوكل، تعرف كيف تُنمي المواهب والإبداع عند صغارك.

متوكل:

_ نعم، مهنة التعليم أكسبتني هذه الخبرات، وأنت أيضًا يا مُزمل؛ فقد سبقتني بهذه المهنة، ألا تذكر فترة عملك أستاذً ومدربًا مهنيًا تُعلم الناشئين فنون النجارة؟

مُزمل:

_نعم، مضى على ذلك وقت طويل، هل تتذكر ذلك يا متوكل؟!

متوكل:

_ كيف لا أتذكر وطلابك الذين درستهم هم مِن أفضل الحرفيين في المنطقة، ودائمًا ما يسألون عنك ويُثنون عليك.

في هذه الأثناء قدِم جعفر إلى منزل مُزمل، دخل إلى فناءِ الدار مُسَلِمًا:

_السلام عليكم.

مُزمل:

تفضل يا ابني، تفضل.

عرفهُ مُزمل بأخيه متوكل، وعرف متوكل عليه:

_إنه جعفر خطيب ابنتي هاديه.

متوكل:

_ كيف حالك، وكيف حال والدك الأفندي سَلمان؟

جعفر:

_هو بخيرٍ الحمد لله، كان يوَّد المجيء معي لزيارتكم؛ لكنه مريض بعض الشيء.

متوكل:

_عفاه الله وشفاه، والدك رجل فاضل كنت أعرفه وألتقيه منذ أن كان موظفٌ في مكتبِ البريد، إنه حاد الطباع بعض الشيء، لكنه رجل طيب.

مُزمل:

_اجلس يا جعفر، عليك أن تتناول معنا الفطور.

نادى مُزمل على ابنته هاديه قائلاً:

_جهزوا الإفطار سريعًا، ونادي على أخاكِ أنس ليفطر معنا هو وأصدقائه.

في هذه الأثناء جاءت هاديه بصينيه الإفطار، واجتمع الجميع على الطاولة لتناول الوجبة.

تلاقي وصراحة..

بعد ذلك استأذن جعفر مُزمل في اللقاءِ بهاديه؛ ليتشاور معها في بعضِ الترتيبات المتعلقة بزواجهما، جلس جعفر مع خطيبته هاديه يُخططان لحياتهما المستقبلية ويتسامران، ويتطلعان لبناءِ عش حب سعيد مِن حوله أفانين بها سجع وتغريد، جعفر قائلاً لهاديه:

_إن شاء الله أول مولود سنُرزق به سنُسميه سَلمان على اسم والدي، وإن كانت أنثى سنُسميها النِعمة على اسم والدتك، ما رأيك في ذلك؟

هاديه:

_أفضِل أن نُسميهما أسماء عصرية جديدة، لكنها تحمل نفس معنى اسم والدتي وأبيك.

جعفر:

_اشرحي لي الفكرة أكثر.

هاديه:

_ أمي النِعمة معنى اسمها الرزق أو الهبه مِن الله؛ فلنسمي البنت "هبه" أما الولد نسميه "سَليم" فله نفس معنى اسم أبيك سَلمان.

★★★

جعفر:

_طالما أعجبت بذكائكِ يا هاديه، إنها فكرة رائعة حقًا، والاسمين جميلين جدًا.

هاديه مبتسمة:

_ شكرًا، هذا مِن ذوقك.

جعفر:

_أتمنى يا هاديه أن تكون البنت بنفس جمالكِ وأناقتكِ، وذكائك.

هاديه مازحه:

_نعم بكل تأكيد، أما الولد إن صار مثلك ستكون مشكلتي كبيره.

جعفر:

_لماذا، ماذا بي؟!

هاديه مبتسمة:

_ سيكون مشاغبًا مثلك.

ابتسم جعفر لوهلة يسيره لابتسامةِ هاديه؛ لكنه حين سماعه لكلمة مشاغب تبدلت ملامحه فجأة، وسرّح بفكرهِ بعيدًا وعاد بخياله لذكرياتٍ كانت في الماضي، حينما التحق بالجامعة في سنته الأولى تعرف على فتاة اسمها "رحيق" كان جعفر يلقبها بالأميرة وهي تُسميه المشاغب؛ فصار هذا الاسم لقب مشهور بهِ في الجامعة، عندما وصفته هاديه بالمشاغب أثار ذلك فيه جِراحًا لم تندمل بعد، نظرت إليه هاديه باستغراب قائلة:

_ما الخطب يا جعفر ما الذي اعتراك فجأةً وغير مِن ملامحك؟!

***

جعفر وهو في غاية الوجل والارتباك:

_هاديه.. هُنالك سر أخفيته عنكِ، لابد أن أخبركِ به الآن.

هاديه والاستغراب بادي على وجهها، خافقًا قلبها بشدة:

_ما هذا السر يا جعفر، أخبرني؟

جعفر:

_قبل أن أتعرف عليكِ يا هاديه، كانت تجمعني علاقة بفتاتين، الأولى اسمها "رحيق" والثانية اسمها "هدى" وهما يدرسان معي في الجامعة.

هاديه:

_لم تخبرني بهذا الأمر مِن قبل!

جعفر:

_لم أجد فرصة، كنت أخشى أن تغضبي مِني ثم تتركيني.

هاديه:

_أخبرني بالحقيقة كاملة ولا تراوغ.

جعفر:

_لا أريد اخبارك بتفاصيل هذا الموضوع؛ فإنها مُحزنة.

هاديه:

_أخبرني فورًا، لا تُخفي عني شيئًا.

جعفر:

سأفعل، لكن ليس الآن.

★★★

_هاديه:

لا، بل الآن.

جعفر:

_هدى صديقة رحيق قامت بإغرائي في لحظة ضعف مِني، عبث فيها الشيطان بعقلي.

هاديه:

_هل علمت رحيق بهذا الأمر؟

جعفر:

_نعم، رأتنا أنا وهدى على هذا الحال.

هاديه:

_لقد جرحت مشاعرها جرحًا بالغًا!

جعفر وهو يبكي:

_خرجت من عندنا ولم تُمهلني فرصة لكي أوضح لها.

هاديه بدت حزينة وقد تعاظم قلقها مِن جعفر، كيف له أن يفعل هذا! لكنها ظلت تستمع لكلامهِ وقد اعتصر الألم قلبها؛ فسألته:

_هل هذا فقط ما أردت أن تخبرني به، أم أن هناك شيء آخر؟!

جعفر:

_بعد هذه الحادثة التي أخبرتك بها بفترة، وجدوا رحيق في منزلها قد انتحرت بآلة حادة، قطعت بها جزء مِن شرايين يدها.

ظل جعفر يبكي بحرقة وأكمل حديثه بصعوبة، أما هاديه فلم تكن تصدق ما تسمع وهي في حالة مِن الصدمة والذهول.

جعفر:

_لم أكن أقصد جرحها يا هاديه، لم أكن أقص..

هاديه:

_توقف يا جعفر أرجوكِ؛ فقد بدأت أخاف منك، أشعر بأنك شخص أخر غير الذي وثقت فيه وأحببته!

جعفر:

_لم أكن أعلم أن هذا سيحصل لها بسببي، فقط أنا..

هاديه:

_أنت ماذا يا جعفر! أنت ماذا!

هل كل هذه الفترة كنت تتلاعب بي! كيف لي أن أثق فيك بعد الآن؟

جعفر:

_أنا صادق في حبي لكِ.

هاديه ودموعها لا تتوقف قائلة:

_لقد حولت حياتي إلى كابوس مُخيف يا جعفر، لماذا.. لماذا لم تخبرني بالحقيقة منذ البداية! أنت شخص غادر وحقير.

قالت ذلك وهي تزداد بكاءً ونحيبٍ ونشيج، سمعت أمها حجه النِعمة بكاءها؛ فهرعت إليها بخطىً متعثرة؛ فوجدتها جالسة على الأرض تبكي بألم وحُرقه ويديها

فوق رأسها، جعفر واقف أمامها وهي بهذا الحال لا يرقأ لها دمع، انكبت حجه النِعمة على ابنتها هاديه واحتوتها، ثم رفعت طرفها تنظر لجعفر ترمقهُ بنظراتٍ حادة قائلة وموبخه:

_ماذا فعلت لها؟!

لم يجب جعفر على سؤالها، ثم قالت:

_ماذا هناك يا ابنتي؟!

هاديه مازالت تبكي، وجعفر مُتسمِر في مكانهِ لا يقوى على الكلام، صرخت حجه النِعمة في وجهه قائلة:

_ماذا فعلت لها؟ تكلم!

في هذه الأثناء وصل مُزمل؛ فرأى ابنته في هذه الحالة، وجعفر ما زال في حالة مِن الذهول عاجز عن الكلام والتصرف، أمسك مُزمل بذراع جعفر وسحبه للخارج، وأمره بالانصرافِ فورًا.

جعفر:

_يا عم مُزمل، أنا فقط صارحتها بالحقيقة.

لم يكن مُزمل يُعير اهتمامًا لكلماتِ جعفر، دنى مِن ابنته قائلاً:

_استهدي بالله يا ابنتي وأخبريني ما الذي جرى بينكما؛ فلقد كبرت في السن، لم أعدَّ أحتمِل.

هاديه وعيناها تُغطيها الدموع، مختنقة بالعبرات:

_جعفر يا أبي، جعفر.. اكتشفت بأنه خائن، كنتُ مخدوعةٌ فيه، إلى أن ظهر لي على حقيقته.

★★★



أجلس مُزمل ابنته هاديه إلى جوارِهِ وسألها:

_ماذا حصل منه؟

فسردت له القصة، تألم مُزمل لألم ابنته وقد انهارت أحلامها فجأة وتَبدّدت؛ فقال مواسيًا لها وهي متوسدةٌ صدره تبكي:

_لا تبكي يا ابنتي كله لخير؛ فليكن أملكِ في الله كبير؛ فلن يُضيعكِ.

سكنت هاديه شيئًا فشيئًا وهدأت وهي متوسدة صدر أبيها مُزمل؛ فصدره كان بالنسبة لها رحيبًا كالمجرة، وذراعاه وهي بينهما حصنًا حصينًا لا تخاف فيه بالمرة.



الفصل الثاني

الابن الأصغر، والساعد الأيمن..

كان أنس ابن مُزمل هو الابن الأصغر مِن أخته الكبرى هاديه، أنس شاب ذو طموح وإرادة قويه، ظلَّ يعمل مع أبيه في ورشةِ النِجارة لفترة مِن الزمن، كان أنس شابًا لماحًا ذكيًا، سُرعان ما أتقن فنون النجارة وبرع فيها أيَّما براعة؛ لكنها لم تكن شغفه الحقيقي وحلم حياته.

كان هدفه الذهاب إلى إيطاليا بجمالها الأخاذ وروعتها النادرة، يُمني نفسه برؤية جمال "روما" تلك المدينة العريقة المُبهِرة، التي هي مهد الحضارة الرومانية العظيمة.

دائمًا ما كان أنس شغوفًا بتعلمِ اللغةِ الإيطالية مجتهدًا في إتقانها ومُثابرًا، يجمعُ الكلماتِ الإيطالية مِن القواميس والكتب والمعاجم كلمةً كلمة؛ فيتعلم معناها ونطقها ويحفظ أحرفها، كان يتعامل مع الكلمات كعملاتٍ نادرة يُجمعها ويُخزنها في عقلهِ وذاكرته، إلى أن صارت بحوزته آلاف الكلمات منها؛ فكانت الجُمَلَّ بعد ذلك تتراص في ذهنه بسهولة ويُسر، يعبر بها عن ما يجول في فكرهِ بطلاقه.

ظلَّ أنس يحلمُ بالذهابِ إلى إيطاليا في كل ثانية، حيث الأضواء لها بريقٌ ولمعان في كل ناحية، والمباني قائمةٌ تُناطح السحاب شامخة، والحضارةُ في أوجِ تقدمها زاهيه، الموسيقى تنساب في الأرجاءِ هادئةٌ وصاخبة، والطقس بتنوعِ فصوله به الأجواء باردةٌ حينًا وحينٌ دافئة، بلادٌ بمائها يسبح ويَمرح الدُلفين، ويصحوا الندى يُقَبلُ الورد كل حين، يتبعه السنونو يُزقزق مِن فوق الأفانين.

★★★

بلادٌ شمسها لا تَطبّع حرارتها على الجبين؛ بل تسري في أوراقِ الشجر تُغذيها، وتنتعشُ الرياحين.

بلادٌ أمطارها لا تُوحل الأقدام وتغمرها بالطين؛ بل تُدغدغ بقطراتها خِصر الياسمين، بلادٌ ليس بها زحام مواصلات؛ بل تَزحَمُك على الخدّ القُبُلات، لعلها حقيقةً وليست تهيُؤات؛ فهي إيطاليا مهبط الفراشات، لعلني أصلها وأتّنشّق عبق المسرات.

لعلني أزورها وأعوض ما فات؛ فقد آن أوان العنب والرمان، وذهاب الأحزان.

عزم أنس مِرارًا وتكرارًا على الهجرةِ لإيطاليا غازيًا بالحلمِ جيوش المجرة، ولا يعبأُ بالجرَّة إن هي سَلِمتّ أو كُسِرت؛ فمعالم الطموح لديه اتضحت، والأهداف في آفاقِه ارتُسِمت، وخيول عزمه صهلت، يُمني النفس بتلك الشواطئ والمراسِ، حيث "روما" بجلالها، و "فينسيا" بسحرها، و "البندقية" ببهائها وروعتها.

تتخالط العواطف في قلب أنس وتتضارب الآراء في عقله، وذاك لهذا يُخالف، يحادث نفسه:

_آهٍ آه، كيف لي أن أغيب عن أمي وأتركها وحبها في قلبي له رنين؛ فيُوقظ في الشوق كل حين، كيف لي أن أسافر عن أبي الذي رباني بجُهد اليمين وعرق الجبين، كيف؟

هل يهجر العطر أوراق الرياحين! وهل يهجر الورد أفياء البساتين! وهل يُهجر حُضن الوطن أضلاع المسافرين؟

آهٍ لحالي آه، أنام على أحزانٍ وأصحو على أشجان، وفي داخلي طموح يؤرقني وحلم يعذبني، وهدفٌ يدفعني دفعًا إلى الهجرة بعيدًا وراء البحار، حيث المستقبل الباهر والغد المأمول.

***

آهٍ لو كنا طيورٌ نعبر المدى بحريةٍ أجنحتنا في الفضاء، جواز سفرنا الانتماء للسماءِ، وتأشيرة عبورنا الرياح والأنواء، وتذكرة سفرنا التغريد والنشيد، نهبط على العش باطمئنان وسلام سعيد، نسافر على متنِ الغمام، ما أرحب السماء حينما تضيق الأرض بسكانها، ما أنبل الجو حينما يصير سطح الأرضِ دمويًا بالكراهيةِ ولعناتِ الحروب.

وداع..

تأكدَّ نبأ هجرة أنس؛ فقد عزم على ذلك، حاول والده إقناعه بعدم الذهاب لكنه أصر على رأيه، حاولت والدته معه لكنها لم تفلح، حزم أنس حقيبته وجهز نفسه للسفرِ وسط حُزن عميق، ووداعٍ قاسي عم أرجاء البيت، ودَّع أنس والده مُزمل، احتضنه والده طويلاً وهو يبكي، ودع أنس أمه حجه النِعمة وانكب على يديها وقدميها يلثمها ويُقبلها، أحتضن أخته هاديه طويلاً، دموع تشتبك في دموع، تقدم أنس بضعة خطوات متجهًا نحو الباب، ثم التفت إلى أمه قائلاً:

_العفو والعافية يا أمي.

حجه النِعمة وهي تلهج بالدعاء له وتوصيه ببضع الوصايا قائلة:

_استودعتك الله يا ولدي، ربي يُهون عليك غربتك ويُيسِر أمرك، لا تنقطع مِني يا أنس، تواصل معي يوميًا واجعلني أطمئن عليك، هل أكلت وشربت جيدًا، هل نِمت جيدًا، هل تغطيت بلحافك جيدًا، أعلمني بجميع أحوالك يا ولدي.

أنس:

_حاضر يا أمي.

نظر أنس إلى أبيه مُزمل، وقال والعبرات تخنقه:

_مع السلامة يا أبي.

★★★

مُزمل لم يتمالك دموعه التي يحاول إخفاءها، قائلًا لأنس:

_يحفظك الله ويرعاك يا ولدي، ويردك إلينا سالمًا غانما.

نظر أنس لأخته هاديه وهي تُغطي وجهها بكفيها وهي تبكي؛ فقال لها:

_مع السلامة يا هاديه، اعتني بنفسك جيدًا، العفو والعافية.

هاديه:

_الله يعافيك يا أنس؛ سأشتاق لك كثيرًا، أوعدني بأنك ستعتني بنفسك، وترجع لي مرة أخرى توقظني للعشاء، وتجلب لي المجلة التي أحبها مِن المكتبة، وتمشي معيَّ إلى السوق تُقدمني، وترجع لنشرب الشاي بالحليب المجفف، نضاعف كمية الحليب على الكوب؛ ليكون الشاي مركزًا، وتعود تأكل البسكويت الخاص بي، وأتشاجر معك على ذلك.

أنس مبتسمًا:

_سأشتاق لكِ كثيرًا يا هاديه، مع السلامة.

هَمَّ أنس بحمل حقيبته، في هذه الأثناء أقبل عليه مُزمل بيدهِ "الإزميل" الذي وجده مخفيًا في الرمال منذ أمد بعيد، قائلاً:

_خذ هذا الإزميل معك يا أنس.

أنس:

_ماذا أصنع به يا أبي؟

مُزمل:

هذا الإزميل يعود لرجل إيطالي اسمه لويس عاش بيننا هنا في "الأُبَيِّضْ" ردهًا مِن الزمن، هو وابنه فابيو واختفيا فجأة، إن صادفت لويس هذا أو فابيو أو أحدٍ مِن أقاربهما عندما تصل لإيطاليا؛ فأعده لهم.

أنس:

_هل هذا ضروري يا أبي؟

مِن الصعب إيجاد لويس هذا أو ابنه في بلدٍ كبير كإيطاليا.

مُزمل:

_لعلك تجدهم؛ فهو أمانة عندنا علينا إيصالها لأصحابها.

أنس:

_حاضر يا أبي.

ودَّع أنس مدينة "الأُبَيِّض" حاملاً حقيبة في ظهرِهِ، جال بنظرِهِ في المكان الذي شَهد فيه أجمل الذكريات، وعاش فيه أروع الأوقات، لمح أنس ذلك الميدان الذي كان يلهو فيه مع الصبيان أثناء طفولته، متخيلاً ذاك الغبار المُثار أثناء لعبهم كرة القدم الفوضوية التي يسمونها "الدافوري" إذ كانوا يركضون بحماس يلعبون ويتشاكسون، وهو يذكر شكل كُرَتِهم القديمة التي يلعبون بها وما عليها مِن رُقع ملصقه فوقها تمنع تسرب الهواء مِن داخلها؛ فبرغم مِن عدم جودة كرتهم وقِدَمِها؛ إلا أنها كانت تتدحرج بين أقدامهم بسهوله وهم في أتم سعادة بذلك ومرح.

فريق كرة القدم التي كانوا يلعبونها وقتها لا يتكون مِن إحدى عشر لاعبًا كما هو مألوف، قد يتكون الفريق مِن ثلاثين لاعبًا أو أقل أو أكثر، يعتمد ذلك على

عددهم، ويستمرون في اللعبِ ما دامت الشمس ساطعة، ولا يتوقفون إلا حينما تحتجب مُؤذِنَةٌ بالغروبِ.

أما الآن غربت شمس الطفولة في سماءِ أنس؛ ليستقبل واقعًا جديدًا ومختلفًا، صارت فيه الحياة ملعبًا كبيرًا يضج بالتحدياتِ والعقبات، فيه الأهداف لا تُركل بالأقدامِ كما هو الحال في السابق، صارت الأهداف هي التي تَركُلك للأمام.

بداية رحله..

واصل أنس مسيرهُ وودع مدينته الحبيبة، الأبيض بما فيها مِن الأهل والأصحاب، متجهًا صوب مكانٍ مختلف وغريب عليه تمامًا، وصل أنس للحدودِ مع ليبيا، وصعد على متن الشاحنة التي أخبروهم بأنها ستوصلهم إلى ليبيا مباشرةً، عليهم دفع بعض المال ليذهبوا بعد ذلك ويسافروا إلى إيطاليا، ففعلوا، كانت تلك الشاحنة مكتظة عن آخرِها بشبابٍ لا يربط بينهم شيء سوى الفقر، ولا يجمعهم شيء سوى الطموح المُؤجَجِ بنارِ المعاناة.

أُوصِد عليهم باب الشاحنة وهم داخلها، أظلم عليهم المكان وعمَّ الصمت، لا يُسمع سوى صوت العجلات المُسرعة وهي تَخُضّ الصخور والرمال، تتأرجح الشاحنة بمَن فيها، أنس جالسٌ في وسطها، لا يُسنِده شيء سوى أكتاف رِفاقه، تمر الساعات تلو الساعات وهم على هذا الحال، يزداد الطريق وُعُوّره، والوضع يزداد خطورة، مَن كان فيهم عابسًا زاد عُبوسه، ومَن كان حزينٌ ازداد بؤسه، لا يصبرهم على حرارةِ المكان ونقص الأكسجين فيه سوى أمل الوصول إلى ليبيا، ثم الهجرة لإيطاليا، هذا الأمل يُقويِهم حينما يَضعفون، ويُعزيهم حين يبكون، ويُرويهم حين يظمئون؛ بل ويُطعمهم حين يَجوعون.

★★★

وصلت بهم الشاحنة لمكانٍ مجهول في الصحراء، تُزال الأقفال مِن على باب الشاحنة؛ ليهبِط منها الجميع بخوفٍ وقلق، ظل سائق الشاحنة يَرمُقهم بنظراتٍ عابسة متجهم الوجه، مصوبًا بندقيته "الكلاشنكوف" اتجاههم!

علت أصواتهم؛ فأسكتها دوي بِضعة طلقات في الهواء؛ لتتلقف تلك الطلقات الغيوم الشحيحة الجائلة في الآفقِ فوقهم، أشار إليهم سائق الشاحنة أن سِيروا بذاك الاتجاه؛ فالطريق المُعبد بالإسفلت هنا نهايته، لا يمكن للشاحنة أن تتقدم أكثر مِن ذلك.

ظلوا واقفين في وسط صحراء مهولة، يحترق بحرارتها السراب، وتَنفقُ فيها الإبل، لا يتجول فيها كائن حي سوى الحيّاتِ والعقارب والهوام، وهم على هذا الحال، اندفع أحدهم وتقدم راكضًا بسرعة نحو سائق الشاحنة؛ الذي ذهب عنهم بعيدًا وهو يركض صوب شاحنته، ذهب إليه ذلك الشاب راكضًا خلفه؛ عله يُرجِعه للمكان الذي جاء بهم منه، توقف حينها سائق الشاحنة.. تقدم الشاب نحوه غير مبالي بالبندقية المصوبة اتجاهه؛ فثقبت حينها جسده رصاصة مِن بندقية السائق، توقف نبضًا قويًا بالأحلامِ، وتعطل مسير أقدام يحدوها أمل الخطو إلى الأمام؛ فيسقط وعيناه مشرعتانِ على حلمٍ كبير، تأبى جفونهما الانغلاق، لكنه لم يَعُد حيًا.

لافظًا أنفاسه الأخيرة رامقًا ضياء الشمسِ مودعًا لها للأبد؛ ليصير مصيره مجهولاً في تلك الصحراء.

أَما تستحي البندقية! كم وأدت مِن أمنياتٍ وأحلامٍ وهي حيه، أَما في سمعها قرآن! أَما في قلبها آية، كم مِن إبهامٍ أثيم ضغط على زنادها العقيم قاذفًا رصاصة غدر زنيم، يباركها شيطانٌ رجيم؛ لتقضي على حلم عظيم!

★★★

كم مرةٍ يموتُ فيها أخوك يا قابيل، أَما آن الأوان لهابيل أن يحيى! أم ما زالت قوى الخير والشر في احتراب على هذا الكوكب المتناقض، الغارق في النور والظلام، في الحقد والتسامح، في الكراهية والحب، في الغضب والرضا، في التطرف والاعتدال، في الأنانية والإيثار، في الحربِ والسلام.

صحراء قاحلة..

استقبل أنس ورفاقهِ الصحراء بأخطارها، بعد أن ولَّت الشاحنة أدبارها، يسيرون، والشمس تُلهِبُ ظهورهم التي حناها الإعياء بسياطٍ مِن مسد، والسموم يلفح وجوهم بفعل الرياح، تلك الرياح التي كانت تحثو ذرات الرمال الساخنة على أنوفهم وأعينهم وآذانهم، جال في خاطر أنس كفاح والده والمشاق التي تحملها مِن أجل تربيتهم وتنشئتهم؛ فقال محدثًا نفسه بأفضال والده عليهم:

_كم كان نضالك مِن أجلنا عظيمًا يا أبي، كم كنت تهزأ بالصعابِ والمشاق مِن أجل راحتنا، تفعل ذلك وثغرك باسم وقلبك منشرح، كم كنت قويًا يا أبي، ائذن لي يا أبي سأتوكأ على صبرك قليلاً وأنا أسير في هذه الصحراء القاحلة؛ لعلني أتجاوز هذا المدى المُخيف الممتد، سأعود سالمًا غانما كما وعدتك يا أبي، لن أستسلم لمخالب الموت التي تنهش جلدي بلفحٍ ملتهب مِن السَمُومِ الحارقة، سأواصل المسير.

بدأت شَفتّا أنس باليبوسِ والتَحجُر واسودّ لونهما، وذبلت أجفانه وارتخت بسبب الإرهاق الشديد والتعب، حاول بلع ريقه فوجد فمه جافًا تمامًا مِن اللُعَّابّ، أين تلك الرطوبة واللزوجة!

كان برفقة أنس والبقيه، شاب صغير في مُقتبل العمر لم يتجاوز الرابعة عشر مِن العمر، سقط ذلك الشاب مغشيًا عليه مِن شدةِ العطش، لم يكن لأحدهم أن يجود بقطرات الماء القليلة المُتبقية لديه؛ لكي لا يهلك مِن العطش، في وقت

فيه كان يسير الجميع بين كفتي ميزان الموت والحياة، مَن ثقلت موازينه بالماء ينجو، ومَن خفت موازينه مِنه يهلك، وهم على ذلك الحال والكرب ينظرون للفتى وهو مَغشيٌّ عليه مُتدلي اللسان، مُزرورقِ الشفتان، متمدد على الصحراء، ماذا عساهم يفعلون! بعضهم واصل المسير غير عابئ بالفتى المسجى على الرمل، والبعض تلكأ مُتفكرًا ماذا عساه يصنع؟

في هذه الأثناء بدأ أنس يُدير غطاء قارورة مائية بإصبعيه، وهو يلهث ظامئًا لا تحمله رجلاه جيدًا؛ إذ صار هيكله النحيل الضامر ثقيلاً على قدميه المنهكة، أثناء إدارته لغطاء القارورة استشعر بأنه أمام اختبار وامتحان عملي صعب؛ لدرسٍ يُسمى الإيثار، تعلمه بصوره نظريه في المدرسة، وسمع به كمفردة وكلمة يُرددها الوعاظ في خطبهم، والسياسيون في ندواتهم، والشعراء في قصائدهم ونظمهم، والكُتاب والأدباء في روايتهم وقصصهم؛ لكنه نادرًا ما يرى هذه الكلمة متجسدة بمعناها في أرضِ الواقع.

أهٍ ما أسهل الشعارات والهتافات والكلمات حينما تكون قولاً ينطق به اللسان، وما أصعبها وأثقلها على النفس حينما تكون باليّد فعلاً يُحركه الضمير، غالب أنس نفسه وانتصر في معركته معها؛ فتقدم نحو ذلك الفتى المُمدَدّ جسده على الرمل فاقدًا للوعي، رافعًا رأسه بكفه لأعلى قليلاً، مُمِسكًا بيده المرتجفة قارورة مائه الشحيح؛ فيَسكُب ما تبقى فيها بجوف ذلك الفتى، بعد نزول تلك القطرات إلى جوفهِ، بدأت الحياة تدُّب شيئًا فشيئًا في هيكله، ما أجمل الحياة وهي تدُّب مِن جديد في روح إنسان ! طاردةً شبح الموت.

ما أجلَّه مِن مقام وما أروعه مِن مشهدّ، حينما ترى الحياة بعينيك تسري في عروق أحدهم؛ لينمو مِن جديد بعد الذبول، أحسَّ أنس برونق هذا الإيناع في نفسه، وجمال هذا الإحساس في شعورهِ، أحسّ بصدق تلك الابتسامة المرسومة

على وجه ذاك الفتى، وهو يفيق مِن كابوس الموت حالمًا بالحياة، أحسّ بنظراته الودودة إليه، وبدموع ابتهاجه تغمره وتحنو عليه؛ فكانت هذه الأحاسيس والمشاعر تُغني بصدقها عن جميع كلمات الشكر والعرفان.

نهض الصبي بصعوبة بالغه، مستندًا على أكتاف أنس، وقواه تعود إليه تدريجيًا، صاح بهما رفاقهما يشيرون لهما بأيديهم أن واصلوا المسير، في هذه الأثناء آذنت الشمس بالمغيبِ وهم على هذا الحال يسيرون ويتقدمون.

لغز أم متاهة؟!

لم تكن الصحراء بالنسبة لأنس ورفاقه متاهة فحسب، بقدر ما كانت لغز مُحير مِن ألغاز هذا الكون الغامض، عليهم إيجاد حل لذلك اللغز لينجو مِن أهواله، عليهم فهم ماهيته ليَصِلوا إلى منتهاه؛ فالمتاهة مهما كانت شائكة ومعقدة وملتويه؛ فإن وراءها سر تحدده مساراتها ومنعطفاتها، أما الصحراء فتظل لغزٌ مُحيرًا مجهولاً، ممتد إلى اللانهائيات السحيقة على مد البصر، تحدد مسارتها السماء، وبوصلة اتجاهاتها النجوم والكواكب.

مضت عليهم عشرة أيام بلياليها، وهم على هذا الحال مِن المسير المضني والمُهلك في عمقِ تلك الصحراء المُحرقة بلا ماءٍ أو طعام، ولا ينعمون بنومٍ خوفًا مِن بروز الأفاعي أو العقارب لادغةً لهم في أي لحظة.

في ظل تلك الظروف القاسية سقط تسعة منهم صرعى قد أهلكهم العطش؛ لتكون الصحراء برملها الثقيل تابوتًا لهم وكفنًا ونعشا.

رمالها سَتواري أجسادهم النحيلة وستغطيها بصمت؛ فتلك الصحراء لا تُحب البوح بأسرارها لأحد، وهي تكره كل مَن يعبر فيها محاولاً ثبر أغوارها والكشف عن مجاهليها، ما أقسى تلك الصحراء وما أفظع لهيبها، هم على هذا الحال وقد نَفِدَّ مخزونهم مِن الماءِ؛ فانعدم بذلك أملهم بالبقاء أحياء، بعضهم

استسلم وهبط بجسدهِ على الرملِ مُغمضً عيناه مترقبًا لحظة موته ومفارقته للحياة.

بشريات..

لاح لأنس في ذاك الهجير القاسي وميض وبارقة أمل لاحت له مِن بعيد؛ لكأنه رأى شيئًا أخضر كأنه غصن، كأن وراءه واحة وارفة فيها شيء مِن الماء، أخبر أنس رفاقه بذلك، لم يُصدق كلامه حينها أحد؛ فقد ظنوه السراب الذي تعودوا على رؤيته جائلاً في الأرجاءِ البعيدة.

بعد وهلة شاهدوا طيرًا يجول فوق ذلك المكان، تقدموا جميعًا صوب تلك الجهة؛ فوجدوا نبعٌ يبض بنذرٍ يسير مِن الماء، يتدفق بلطفٍ مِن الله، لمسوا الارض مِن حول ذلك المكان فوجدوها رطبة، قد نمت شجيرات صغيرة فوقها، كان ما شاهدوه شيء شبيه بالمعجزة الإلهية.

حفروا بأيديهم ذلك المكان الرطب؛ فنضح منه الماء عذبًا زلالاً؛ فشربوا منه وملؤا منه أوعيتهم وقواريرهم، واستراحوا لأيامٍ في ذلك المكان، لكنهم لم يمكثوا.. إذ لم يكن زادهم مِن الطعامِ كافيًا للمكوثِ؛ فقرروا مواصلة سيرهم لعلهم يجدون مكانًا مأهولاً بالسكانِ يتزودون مِنه بالطعام.

وقد نحلت أجسادهم نحولاً شديدًا؛ حتى التصقت جلودهم بعظامهم، ساروا ثلاثة أيام أخرى يجرون أجسادهم جرًا على الرملِ الثقيل.

بعد ذلك شعروا بأن ثقل الرمل بدأت تخف وطأته شيئًا فشيئًا تحت أقدامهم، وكثافته بدأت تقل رويدًا رويدا، وبدأ يتناقص حجمه.

فكانت تلك الإشارات بداية بُشريات تَوحي بأن الصحراء قد ولت وراءهم، وأنهم على وشكِ الوصول.

★★★



وهم على هذا الحال يغمرهم التفاؤل بالوصول، ظلوا يتقدمون بضع خطوات للأمام بعضهم ماشيًا، وبعضهم زاحف يتأوه بألمٍ شديد، نظروا للأرضِ فإذا فيها آثار أقدام بشريه وأظلاف إبل؛ فأنبعث فيهم أمل البقاء أحياء، وسرّى فيهم ذلك الشعور فنشطهم وحرك فيهم كل مِفصل متيبس، شَرعوا بعدها في مواصلة سيرهم بعزم، نظر أنس لقدميه فوجد الجلد الذي كان يكسوهما قد انسلخ عنهما تمامًا وتتطاير، تتطاير جلد الحيه، وأظافر أصابع قدميه تساقطت بالكامل.

وكذلك فعل رفاقه، نظروا لأقدامهم فوجدُوها عاريه مِن الجلد لا يكسوها شيء سوى القيح والصديد، هل يمكن أن يكون الرمال الناعم الطري مُحرقًا وجبارًا بهذا الشكل!

فيا لهُ مِن هول ويا لهُ مِن مشهد، بدأوا يَشْتَمُون أجسادهم، فلكأنها رائحة شواء تفوح منها، قد أنضجتها الشمس بلهيبها.

وقت عصيب..

وهم على هذا الحال نظر أنس للصبي الذي كان برفقتهم؛ فوجده يحمل بيديه ورقه يطيل النظر فيها ويذرف الدموع، سأله أنس عن سر ذلك؛ فقال هامسًا لا يقوى على الحديث مِن شدة العطش:

_إنها روشته دواء سأجلبه لأمي المريضة، نادرًا ما يتوفر هذا الدواء في بلدي، حتى إن توفر فإنه باهظ الثمن؛ لعلني إن وصلت لإيطاليا أجلبه لأمي؛ فهي تحتاج له باستمرار لتظل على قيد الحياة.

في هذه الأثناء وقد نضب ماؤهم وانتهى زادهم، لكنهم قد أوشكوا على اجتياز الصحراء بأهوالها وراءهم؛ فصمدوا يُقَوِيهِم الأمل والرجاء، لكن الجوع والعطش والأرق قد بلغ منهم مبلغًا عظيمًا؛ لعلها تكون اللحظات الأخيرة في

حياتهم، تقدموا قليلاً فلمحوا بداية ظهور الطريق المُعبد الذي مِن ورائه المكان المأهول بالسكان، يظهر ذلك الطريق الأسفلتي بعيدًا عنهم يُموهه السراب؛ فتعاظم فرحهم لرؤيتهم ذلك الطريق.

استراحة..

في تلك اللحظات وهم على مشارف الوصول للحدود الليبية ظلوا يحاولون الصراخ وقد ارتخت حبال صوتهم؛ فكانوا يصدرون أصواتًا أشبه بالأنين، وهم على هذا الحال وضعوا أقدامهم على بداية الطريق المسفلت الطويل، المؤدي إلى دخول الأراضي الليبية، ما هي إلا لحظات وتُقبل شاحنة باتجاههم متقدمة بسرعةٍ هائلة، وهم بجنباتِ الطريق يُلوحون لها، تتوقف بجانبهم تلك الشاحنة، وبتوقفها تحرك بداخلهم الأمل وهم يلهجون بالحمد والشكر لله.

هبط سائق الشاحنة الذي توقف بجانبهم بيده دلو مِن ماء، وهم جميعًا حوله أياديهم مُصوبه ناحية ذلك الدلو، أمرهم السائق بالجلوس ليسقيهم واحدًا تلو الآخر مِن ذلك الماء رويدًا رويدًا، جرعة جرعة؛ فكثرة الماء تؤذي الظامئ كقتله، ظلوَّا يشربون ومسامات جلدهم بدأت في التفتح، والعرق يتحدر منها شيئًا فشيئًا يُغطي أجسادهم بالملح، كان ذلك العرق بمثابة البلسم اللطيف الذي يعالج تقرحات جلدهم؛ ليقدم لهم بعدها سائق الشاحنة قدحًا مِن الأرز الجاف، وكسرات خبز يابسه، تتسابق كلتا يديهم إلى القدح ليغترفوا منه بضعة لقيمات تسد جوعهم، يبتلعونها بسرعه مع مضغٍ يسير، إلى أن نفدت كمية الطعام الموجودة لدى السائق، جلس الجميع بعدها تحت ظل الشاحنة، والسائق على متنها مشعلاً سيجارته ومُحتسيًا بعدها ما تبقى في زجاجاته مِن خمر، نزل مِن عليها مترنحًا؛ فعرض عليهم خيارين إثنين لا ثالث لهما قائلاً:

_مَن كان منكم يريد الذهاب إلى العنابر المخصصة للمهاجرين داخل ليبيا؛ ففيها سيجد المأوى والعلاج، والطعام والكساء؛ فعليه أن يدفع لي مبلغ كذا مِن المال أوصله به.

أما مَن كان يُريد الذهاب مِن هنا مباشرةً لشاطئ البحر الأبيض المتوسط في ليبيا، الذي سيواصل منه رحلته إلى البر الإيطالي؛ فعليه أن يدفع لي مبلغ كذا مِن المال أوصله به إلى هناك.

وأضاف قائلاً لهم:

_لا تحاولوا الذهاب بدوني؛ فقد تتعرضوا للأسَرِ مِن قبل العصابات، حينها إن لم يدفع لهم أهاليكم قيمة الفدِية؛ فسيقتلونكم على الفور، وقد تتعرضوا لما هو أفظع مِن القتل.

لم تكن أهوال تلك العنابر تقل فداحة مِن أهوال البحر متلاطم الأمواج، لكن احتمال بقائهم أحياء في تلك العنابر أكبر مِن احتمال ذلك في البحر، الذي تسوقهم فيه الأمواج العاتية بما تشتهي الرياح لا السفن إلى المجهول، قد يصلون وقد يموتون غرقًا قبل الوصول.

كان الاختيار صعبًا لهؤلاء النفر؛ فقد اجتازوا مجاهيل الصحراء بمشاقها وأهوالها، هل بعد كل هذه المشاق التي تكبدوها سيظلون سجناء في تلك العنابر الضيقة مِن غير أن يتحقق حلمهم بالوصل للبر الإيطالي!

وهم يتشاورون فيما بينهم، قرر الكثيرين منهم اجتياز البحر إلى المجهول؛ ليواجهوا بذلك خيارين آخرين أشد صعوبة من الأولان، إما الموت غرقًا في عباب البحر، أو الوصول إلى شاطئ الأمان، تكمن صعوبة هذين الخيارين أنه في هذه

المرة ليس أنت مَن سيختار ما يناسبك منهما، ظروف البحر هي التي تختار مَن سيحيى ومَن سيموت، مَن سيَصِل ومَن سيغرق.

ما أصعب الخيارات حينما يكون الموت طرفًا فيها، ما أسوء المغامرة المؤدية إلى احتمال الهلاك، لكنه شغف عظيم وحلم بين جوانح أولئك لا يهدأ، يدفعهم دفعًا لاقتحام تلك الأخطار؛ لعل تلك الأخطار هي التي تقلل عنهم المرارات وألم الفقر، لعلها خلاصهم مِن عذاب سرمدي يعيشونه، لعلهم يجمعون بها بقايا حلمٍ تناثر إلى أشلاء في بلادهم، لعلها قصة حب وأدتها الظروف عنوة، لعلها أوراق قُدمت لوظيفه تم ردها تسعين مرة مِن تسعين جهة مختلفة، أساس التوظيف فيها يعتمد على المحسوبية والوساطة ليس على الكفاءة، لعل تلك الأخطار نجاتهم مِن واقع أوشك على الانهيار فوق رؤوسهم، لعلها أم مريضه عاجزٌ ولدها عن مُداواتها وعلاجها بسبب الفقر وقلة ذات اليد، لعله طموح مشروع لإنسانٍ مِن حقه أن يحلم بالحياة حلوة نضِرة، لعلهم ولعلهم.. ولعل الإنسانية تُفيق مِن سكرتها وتصحو مِن سباتها ونومها العميق، تُزيل عن هؤلاء المعذبين مآسيهم وكروبهم، وأحزانهم وأشجانهم.

أمواج مجهولة العواقب..

اختار أنس ومعظم رفاقه ركوب البحر، ضاربين بالأمانِ عرض الحائط، دفعوا للسائق ما طلبه مِن نقود؛ ليذهب بهم إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

وصلوا إلى هُناك بعد أن هبطوا مِن متن الشاحنة وذلك ليلاً، وقفوا أمام البحر الهائل، ووقف البحر بشموخه وعُتوه أمامهم، إلى أن وصلهم الزورق المطاطي المُعد لهجرتهم إلى البر الإيطالي، يتهادى الزورق ويرسو أمامهم ببطء، تُحركه نسماتٌ وديعه، جامع النقود يقف أمام الزورق، ملامحه كانت صِلبة كالجرانيت وخاليه مِن أي تعبير، نظر إليهم واحدًا واحدًا بنظرات عينيه



الجاحظة والشرِهة؛ فقال لهم راغي الفم ولعابه يتسايل ببلاهة، والجشع بادي عليه:

_عليكم دفع المال أولاً أيها الحمقى؛ قبل أن تطأ أقدامكم القذرة هذا الزورق الجميل.

فشرعوا يدفعون له ما طلب مِن المال، ثُمّ يصعدون على متن الزورق واحدًا تلو الآخر، يقفون صفًا واحدًا يتقدمهم أنس، استوى الجميع على سطح الزورق وجلسوا عليه مِن حولهم الليل الكثيف يطوقهم بظلامه الدامس، وهم يسمعون صوت أمواج البحر المتلاطمة تزحف نحوهم بهديرها العنيف، في لحظات يملأها التوجس والترقب، وهم على فم البحر الذي لطالما التهم بنَهمّ الكثير مِن الناسِ ولم يشبع، قد يبتلعهم هم أيضًا، قد يحدث ذلك أو قد لا يحدث، لا أحد يدري.. لعلهم يصلون إلى إيطاليا، أوقد يموتون غرقًا، كل الاحتمالات واردة.

وهم على هذا الحال مِن التوجس والقلق، حينها بدأت رحلتهم إلى المجهول، انطلق الزورق بهم يطفو على سطح الماء تُهدهِده أمواج لطيفه الحركة، الجو باردٌ بعض الشيء، وهم يرتدون سترة النجاة، الزورق مكتظ عن آخره بعدد مائة وتسعة عشر مهاجرًا مِن جنسيات مختلفة.

ظلَّ الزورق يتقدم ويتقدم، البحر يتوعر شيئًا فشيئًا يتغير سكونه إلى صخب، تلك الأمواج الصغيرة المتلاحقة بدأ يشتد عودها ويقوى ساعدها؛ فظلت تكبر شيئًا فشيئا.

في هذه الأثناء بدأ الفجر يفرِدّ أجنحته الواسعة على الأفقِ رويدًا رويدا، يغمرهم بضوئه الأزرق البهي الزاهي، يمحي ثِقل الليل عنهم بالألقِ والنور والبهاء، وهم ينظرون إلى امتداد البحر الهائل المتسع مِن حولهم، والأمواج العاتية ترتفع فوق زورقهم.

***

تمر الساعات تلو الساعات وهم على هذا الحال، يرفعهم الموج ويخفضهم، أصاب معظمهم دوار البحر؛ فلم يكن الكثير منهم يألف البحر وحركة أمواجه المتسارعة، بدأ الإعياء يأخذ منهم النصيب الأوفر والحظ الأكبر، الإرهاق ظهر على ملامحهم الشاحبة المثقلة بالهموم والمآسي، بدأ القيء يتصاعد إلى حلقوهم ويندفع مفرغًا ما في جوفهم مِن طعام، معظمهم يُحاول جاهدًا حبس القيء المالح في فمه؛ ليبتلعه ويرجعه إلى بطنه مرة أخرى؛ وذلك لكي لا يفعل الجوع بهم الأفاعيل.

وهم على هذا الحال لا يزداد البحر مِن حولهم إلا اتساعًا، والموج لا يزداد إلا عنادًا يبطش بزورقهم ويَدفَعُه، يُميلهم ذات اليمين تارة، وذات الشمال تارة، الجميع متشبث بالزورق في قلق كبير، ومُتشبث بالحياة بقوةٍ وإصرار.

تتلبد السماء بالغيوم وتتجمع كتل السحاب كأنها جبالٌ مِن فوقهم، والرعد يدوي بقوة يُزلزل الأفق، والبرق يلمع بجبروتٍ وشدة، مُؤذنًا بحلول الكارثة في وقتٍ ازداد الموج فيه ارتفاعًا وصخبًا، والرياح ازدادت هيجانًا وعويلاً، والبرد ازداد شِدة وضراوة، بزمهريرٍ تصتك له أسنانهم وترتجف به أطرافهم؛ فيشهقون شهيقًا مشبعًا بالخوفِ؛ ليلفظوه زفيرًا مشبعًا بالرعب.

إلى أن انهمر المطر الوحشي على زورقهم بكثافةٍ وقوة، كل قطرة تنطلق صوبهم كأنها شظيه، والرياح تغلي وتفور، وتهيج بصوتٍ رهيب مفزع، كزئيرٍ مِن أسدٍ غاضب، مُكبل في قفصٍ مِن حديدٍ تتناوشه السياط.

صار الموج يرتفع بصوره جنونيه مع انهمار المطر؛ فالتوى الموج على زورقهم قالبًا إياه رأسًا على عقب، ظهرًا لبطن، إلى أن رفعتهم وقذفتهم موجة جبارة، حملت الزورق كطفل رضيع وقذفته لأعلى، كأنه نواة مِن تمر صغيره بيد غلام يلهو بها، ظل المهاجرون يتساقطون مِن على الزورق المُحلق في الهواءِ بفعل

الموجة الجبارة، كانوا يسقطون واحدًا تلو الأخر في خِضم البحر؛ برغم تشبثهم الشديد بالزورق، حينما هدأت وسكنت تلك العاصفة الهوجاء وتراخى الموج قليلاً، لم يكن على متن الزورق أحد!

كل واحدٍ منهم صار يحتل موقعًا مُغيرًا عن أخيه وهم جميعًا على سطح البحر، تلعب بهم الأمواج فيه لعب الأفعال بالأسماءِ، ظل كل واحد منهم يلتفت يُمنةً ويسرة طافيًا على الماءِ بسترته، يبحث عن مكان الزورق، أصواتهم لبعضهم لا تصل، لا يصلهم بالحياة شيء سوى ذلك الزورق المفقود، نهشت أسماك القِرش أجساد ثلاثة منهم ومزقتها لأشلاء؛ فكان مصيرهم مجهولاً في البحر.

ما أصعب الأحلام وهي تموت، ما أصعب الأحلام حينما تموت، وهم على هذا الحال لم يظفر بالزورق سوى عشرون منهم صعدوا على متنه، لكن حدث ما لم يكن بالحسبان؛ فإذا بالزورق المطاطي يهمس بصوت ينم عن تسرب الهواء مِن داخله، بدأ حجمه بالتقلص شيئًا فشيئا، في ذلك الحين الجميع سحب خيوط أمله بالبقاءِ حيًا، واستسلم لمصيرِهِ المحتوم.

هدوء وفرح..

بعد لحظاتٍ مِن ذلك، سمعوا رنين صافرات نائيه؛ ليروا بعدها وميض أضواء فاترة قادمه مِن بعيد متجهة نحوهم.

ظلَّ الجميع مذهولاً لذلك لثواني يسيرة، يفركُ عن عينيه وجفنيه الوهم، ما هذه الاضواء القادمة نحونا يا ترى! لعله حلم راودنا قبل الموت؛ لنُفارق الحياة ونحن سعداء، ولعلها حقيقة تُفيد بأن أجالنا لم تَحِن بعد وأننا سنحيى، وهم على هذا الحال مِن الدهشة تقدمت تلك الأضواء نحوهم واقتربت أكثر وأكثر؛

فشاهدوا باخرة بيضاء كبيرة على متنها جنود، إنهم خفر الساحل الإيطالي وقد جاؤوا لإنقاذهم!

وهم على هذا الحال شهق أحدهم مِن الفرح شهقة، فارق على إثرها الحياة، ظلَّ الجنود يتلقفونهم واحدًا تلو الآخر ويرفعونهم في الباخرة، نجا منهم سبعين فقط، أما الباقين فلم يُعثر عليهم؛ فصار مصيرهم مجهولاً في البحر؛ ليطوي الموت صفحة حياتهم بأحلامها، وأحزانها وأشجانها.

ما أقساه مِن موقف، وما أفظعه مِن فقدٍ مؤلم، وكذلك ما أعظمها مِن فرحة وقد ظفروا بالحياةِ بعد تكالب الموت العنيد عليهم.

وصل خفر السواحل بالمهاجرين إلى شاطئ الأمان، هبطوا مِن على متن الباخرة سعداء ثغورهم مبتسمة، وقلوبهم نابضة بالأمل؛ فقد وصلوا لشاطئ الأمان أخيرًا وبعد طول معاناة، ولكن..

شاطئ الأمان..

عند شاطئ الأمان ظلوا يُجردون ويُفَتشون، يقفون صفوفًا مُتراصة ويُفحصون، تؤخذ بصماتهم ويُسألون كثيرًا مِن الأسئلة؛ فيُجيبون، يُذهب بهم للمشافي؛ فيتعالجون، ثم يُجاء بهم أخرى ويُسألون ثم يُجيبون، ثم يُسألون أسئلة إضافية في غاية الأهمية ويُجيبون، تتوالى الأسئلة عليهم تعيد نفسها بأنماط مختلفة وهم يُجيبون؛ فيشعرون حينها بأن الذي تخيلوه عن إيطاليا كان وهمًا، أما الواقع فمختلف تمامًا.

آهٍ حينما يصطدم الخيال بالواقع، والحلم بالحقيقة المُرَّة، يا شاطئ الأمان تحلَّى بالرفقِ مع هؤلاء المعذبين، كن لطيفًا في تعاملك معهم؛ فهؤلاء ليسوا ضفادع سامة قذفها الساحل إليك، هؤلاء ليسوا غزاة أو ارهابيين، هؤلاء أكثر منكم طِيبه ومُسَالمين، كل ما في الأمر أن لهم أحلام ساقتهم إلى أرضكم، فما

عساكم فاعلين! لا تحولوا أحلامهم تلك إلى كوابيس مُفزعه؛ فهؤلاء المعذبون هم مجد إيطاليا؛ إن هي أحسنت إيوائهم وأزالت عنهم كروبهم وآلامهم.

كونوا لهم أغصانًا وريفه يكونون لكم عصافيرًا صديقه تُغرد بأجمل زغزغةٍ سمعتها أذن، أعلم أيها السادة الكِرام بأن هؤلاء الأشقياء لم يتذوقوا طعم الإسبجتي والبيتزا الإيطالية الفاخرة، لكنهم تذوقوا الحب أضعافًا مضاعفة؛ فكان غذائهم الرئيسي هو الطموح، ودثارهم هو الأمل، وتكسوهم الإرادة بأروع كساء، فما عساكم فاعلين!

هل ستكونون لهم حنظلاً أم تسنيم؟ هل ستكونون لهم ملاذًا؟ أم ستكونون عليهم عذابًا! هل سيجدون فيكم البشر السوي! أم سيجدونكم أشقياء بتعاسة البخل والانزواء، عاملهم معاملة الإخاء يكونوا لمجدكم أوفياء.

أرض الحلم..

هكذا وصل أنس لإيطاليا، وهكذا وطئت أقدامه أرض الحلم، ظل أنس مبهورًا يجول نظره بالمكانِ يتفحصه زاوية زاوية، متسائلاً ماذا عساي أن أفعل الآن! فقد وصلت، نعم وصلت وتحقق حلمي!

في هذه الأثناء لمح أنس صديقه الفتى الذي حاوره وهم على الصحراء، عندما أراه روشته الدواء التي سيجلب بها الدواء لأمهِ المريضة.

رأى أنس الفتى بيده الورقة يعرضها على جمع غفير مِن الإيطاليين وهم من حوله، كانوا لا يفهمونه ولا هو يفهم كلامهم؛ فهو لا يتحدث الإيطالية ولا الإنجليزية حتى، ظلوا في انتظار مترجم ليفهمهم كلامه، في هذه اللحظات هرع إليهم أنس وأوضح لهم قصة الفتى، وأخبرهم بأن عليهم مساعدته؛ فشرعوا بتقديم بعض الأوراق ليقوم هو بدوره بتنفيذ بعض الإجراءات، في تلك الأثناء لمح أنس بعض الأفراد العاملين بمنظمة تطوعيه؛ فذهب لهم ومعه الفتى وأوضح

لهم مشكلته، شرعت المنظمة على الفور في الاهتمام بالفتى وأولوه الرعاية اللازمة، وتكفلت المنظمة بعلاج أمه في إيطاليا، أسعد ذلك الفتى أيما سعادة وغمره السرور.

شيء غير متوقع..

في تلك الأثناء ظل أنس يتفحص أوراق هجرته ويقوم بالإجراءات الروتينية، أثار وجوده في الارجاءِ انتباه بعض الأفراد المُنتمين لعصابة "المافيا" الخَطِرة.

تقدم نحوه هؤلاء النفر بسياراتهم السوداء الفارهة وبذلاتهم الفاخرة، تلمع أحذيتهم كأنها مصنوعة مِن (المِزايكو)، ساعات أياديهم مضبوطة ثوانيها بدقة، تحركاتهم محسوبة خطواتها بحذر، لفتاتهم مُحددة اتجاهاتها بمقدار معين، ونظراتهم ثاقبةٌ المرامي ومُحددة.

شرَّع هؤلاء النفر يسألون أنس بعض الأسئلة كأنهم صحفيين؛ ليجد بعد ذلك نفسه معصوب العينين، ومُقيد على كرسي حديدي في بُقعةٍ مظلمة، ظلَّ يصيح ويصرخ:

_أين أنا، ما هذا المكان؟!

اذهبوا بي إلى الشاطئ، أعيدوني إلى البحر مرةً أخرى، أريد أن أعود إلى بلدي.

أثناء صراخ أنس سمِعَّ صوت صرير شريط لاصق؛ ليجد ذلك الشريط مطبقًا على فمه الصارخ بقوة؛ فلم يعد صوته مسموعًا ولا نداءاته مُجابه، يحاول افتكاك القيود مِن يديه ورجليه فلا يقدر، يحاول أخرى فلا يقدر، يحاول أن يثب بجسده مِن على الكرسي المُقيد عليه فلا يقدر، نظر إلى قواعد الكرسي فوجدها مثبته بمسامير غليظة على الأرضية، حاول تكرار الوثبة مرة أخرى بلا فائدة؛ فهبط على الكرسي ساكنًا عاجزًا، لا يقوى على فعل شيء.

★★★

أثناء ذلك فكر أنس في طريقه يتخلص بها مِن تلك القيود، إذ كان يخبئ الإزميل الذي أعطاه له والده في مكانٍ آمن بين فخذيه، إذ كان يخشى سلبه منه أثناء تفتيش الجنود لهم أثناء هبوطهم مِن الباخرة على الشاطئ الإيطالي، شرَّع أنس في إرخاء حزامه بأطراف أصابعه؛ فأدخل يده ببطء داخل بنطالِهِ متحسسًا مكان الإزميل، في هذه الأثناء فاجئهُ دخول أحد أفراد العِصابة، قائلاً له وهو يبتسم بخبث:

_ماذا تفعل أيها الشقي الماكر!

أنس:

_اخرس أيها الأحمق الجبان.

خرج فرد العصابة مِن عند أنس، وصاح مُناديًا:

_أقبلي يا إيليانا.

تشاورت إيليانا مع رجل العصابة وهم في الخارج وسألته عن الأسير؛ فقال لها:

_ذلك الفهد الأسود صعب المِراس، تعاملي معه بحذر.

إيليانا مبتسمة:

_لا تقلق؛ سأعتني به جيدًا.

حُسن التربية..

انصرف الرجل بعد ذلك، تقدمت إيليانا صوب أنس الغافي على كرسيه، بيدها زجاجة النبيذ الفاخرة، أفاق أنس على صوت وقع أقدامها، وهي تطرق بكعبها العالي رفيع الطرف الأرضية أثناء سيرها عليها، أفاق أنس وهو متأرجح

الأجفان بين اليقظة والنعاس، فتح عيناه ببطء شديد؛ فرأى إيليانا مائلة بجسدها أمامه بفستانها العِنابي القصير، مُقدمةً له كأسًا مِن النبيذ قائلة:

_تفضل يا أنس.

أومأ أنس برأسه رفضًا:

_لا أريد.

إيليانا رجعت بِضعة خطوات للوراءِ، قائلة لأنس وهي تبتسم بلطف:

_لا تقلق؛ سأشرب أنا أولاً ثم أسقيكِ مِن نفس الكأس؛ لتتأكد أنه جيد.

أنس كان ظامئًا واشتهى شرب بِضعة جرعات مِن النبيذ، لكنه جال في ذهنه أول شربه احتساها مِن الشراب أثناء فترة مراهقته؛ حينما قدِم ثملاً مُترنحًا إلى البيت، ثم فُوجئ بوالده على الباب ينتظره؛ فصفعه على ذلك الفِعل، وسكب عليه الماء ليصحو مِن السُكرِ، ثم قال له:

_الخمر لا يذهب بالعقلِ فقط، إنه يذهب بالوقارِ أيضًا ويجعلك تتصرف بطيش وبلاهه، عليك أن لا تهرب به مِن مشاكلك لتعيش على الوهم، عليك مواجهة تلك المشاكل وحلها بمنطقيه.

كانت تلك الجرعات التي صفعه عليها والده، أخر جرعات شربها في حياته مِن الخمر، وعزم على عدم تكرار ذلك الخطأ مرةً أخرى؛ فقال لِإيليانا:

_لا تتعبي نفسك؛ لن أشرب مِن هذا النبيذ أبدًا ما حييت.

إيليانا:

_هل أحضر لك صنف أخر! ويسكي أو واين، أو فودكا، كما تريد.

أنس بغضب:

_أنا لا أشرب أي نوع مِن الكحول لأنها حرام.

إيليانا:

_أتفهم هذا؛ فأنت مسلم ومِن السودان لا عليك، لست مُجبرًا على احتسائها.

أنس:

_مَن أنتِ، وماذا تريدين مِني بالضبط؟

وكيف عرفتي اسمي وبأني سُوداني الجنسية؟

إيليانا:

_قرأت تلك المعلومات في الأوراق التي كنت تحملها في جيبك، أنا هنا لمساعدتك على الاسترخاء يا أنس؛ فيبدو أنك قد مررت بظروف صعبة جدًا.

أنس غضبًا:

_ليست أصعب مِن كوني مُقيد على هذا الكرسي اللعين.

إيليانا:

_أتفهم هذا لا عليك، بضعة لحظات وسنُطلق سراحك ونهبك بعض المال؛ فتكاليف المعيشة هنا باهظه جدًا في ايطاليا، والعمل لا يتوفر بسهولة للمهاجرين أمثالك.

أنس:

_تعتقدين بأني ساذج أليس كذلك! وسأصدق كل هذا الهراء الذي تنطقين به؟ أغربي عن وجهي يا سافلة.

إيليانا:

_يبدو أنك مُتعب وتود الاستراحة قليلاً، سوف أذهب الآن.

خيبة أمل..

خرجت إيليانا مِن عند أنس شاحبه الوجه ومُغضبة، ثم التقت بفرد العصابة في الخارج؛ فسألها مبتسمًا:

كيف سارت الأمور مع الفهد الأسود، هل وافق على شرب نبيذك الجميل؟

إيليانا:

_رفض، إنه لا يثق بي كثيرًا ولا يُحب شرب الخمر.

في هذه الأثناء أقبل "جوزيف" فرد العاصبة الأخر، وقال موبخًا فرد العصابة الأول:

_ليس بهذه الطريقة نؤدى عملنا يا أبله.

ثم قال لِإيليانا:

_انظري إليه مِن هذه النافذة الزجاجية وهو جالس على الكرسي، انظري إليه كيف يتأمل الطاولة الموجودة في زاوية الغرفة ويتفحص شكلها بانبهار، يبدو أن ضيفنا شغوف بأعمال النجارة والتصاميم الخشبية، أو أنه كان يعمل نجارًا في بلدهِ، تأكدي مِن هذه المعلومة وأعلميني بالنتيجة.

دخلت إيليانا على أنس ثم قدمت له الطعام وتلطفت معه، وسألته عن مهنته التي كان يعمل بها قبل قدومه إلى إيطاليا؛ فأجابها بأنه كان يعمل نجارًا، انبهرت إيليانا بفطنه وذكاء جوزيف؛ فسألته عندما خرجت:

_ كيف عرفت بأنه كان يعمل نجارًا في بلده؟

جوزيف مبتسمًا:

_مثل هذه الأمور لا تخفى عليَّ.

وأردف قائلاً:

_قومي الآن بإرخاء القيود عنه لا تخافي؛ فلن يقوم بإيذائك.

إيليانا:

_وكيف لي أن لا أخاف؟

جوزيف مبتسمًا:

_لا تقلقي؛ فإنه لا يعض.

إيليانا:

_أنت أحمق متهور.

جوزيف:

_ألم تلحظي نظراته إليك؟

قد بدأ صاحبنا يُعجب بك.

إيليانا:

_لا تكن سخيفًا يا جوزيف.

جوزيف:

_إن أزلت عنه تلك القيود سيحس بالراحة أكثر، وسيشعر بشيءٍ مِن الأمان تجاهك.

إيليانا:

_ كيف عرفت ذلك ولم يمضي على وجوده معنا هُنا سوى يوم واحد؟

أيعقل أن يكون مُعجبًا بي وبهذه السرعة!

جوزيف:

_لا أدري، ثمة شيء غامض يجذبه نحوك، حاولي معرفة ذاك الشيء وأخبريني.

إيليانا:

_إن أزلت عنه تلك القيود سيهرب على الفور.

جوزيف مبتسمًا:

_إذًا فلتساعديه على الهروب، هذا ما نُريده.

إيليانا:

_ماذا.. تريدهُ أن يهرب، وكيف نضمن عودته؟

جوزيف:

_نحن لا نريد مِنه العودة إلى هنا مرة أخرى؛ سنجعله يعمل مع صديقنا "مارتن" في مصنع الأخشاب، وانتِ ستُساعدينه.

إيليانا:

_وماذا بعد ذلك؟

جوزيف:

_سيطمئن لكِ وتقومين باستضافته في منزلكِ، وبعد ذلك تجعلينه يوقع على ورقة بها إذن الموافقة على استئصال كليته.

إيليانا:

_سيفهم محتوى الكلام في الورقة.

★★★

جوزيف:

_حاولي أن تخدعيه وتحتالي عليه.

إيليانا:

_كيف؟!

جوزيف:

_قولي له أن هذه الورقة بها عقد عمل في وظيفه تناسبه، وبعدها نؤدي عملنا بسلاسة، وندفع له بعض المال، وتقومين أنتِ بالهرب والاختفاء.

إيليانا:

_لماذا لا نخدرهُ ونقوم بهذه المهمة بسرعة؟

جوزيف:

ستقوم الشرطة بملاحقتنا والسعي ورائنا، كما حدث لنا بسبب تجربتنا مع الفتى السابق الذي استأصلنا كليته؛ فقد تزايدت شكوك الشرطة حولنا، فهم الآن يراقبوننا عن كثب، لذا لا نريد أن نخطو خطوه خطره وغير مدروسة نندم عليها لاحقًا.

إيليانا:

_نعم أنت محق في ذلك، إذًا ما العمل؟

جوزيف:

_اذهبي وتوددي إليه قليلاً، أشعريهِ بالدِفء والراحة.

★★★

دخلت إيليانا وتقدمت نحو أنس بخطى كسلى وأجفان نعسى، يتمايس قوامها الممشوق المعتدل كغصنٍ يميلُ مُنتشيًا طرِبًا بالنسيم، ثم قالت له بصوت ناعمٍ غَنجٍ رخيم:

_هل تشعر بالبرد يا أنس؟

أنس:

_ليس كثيرًا.

في هذه الأثناء دنت منه وشرعت في نزع مِعطفها الصوفي الثقيل عن جسدها، ثم غطت به أنس، شعر أنس بنعومة المعطف يلامس بشرته الجافه، ويُدفِئ أطرافه الراجفة.

أثناء ذلك نظر إلى إيليانا، جديلتها الطويلة مُسدله واصلة إلى منتهى خصرها الضامر، وقد طوقته بذراعيها وهي ترمقه مبتسمة وعطرها المخملي يُضمه بقوة.

استسلم أنس لهذه الهجمة الناعمة، ولكن بعدها بدأ يتململ مِن على كرسيه رافضًا مواصلة ذلك وبدأ في مقاومتها؛ فانسحبت مِنه وشرعت في تعديل هيئة ملابسها قائلة:

إيليانا:

_أنت وغد بائس كئيب، خالي مِن المرح.

أنس غاضبًا:

_كيف لي أن أستلطفكِ وأنا مُقيد بهذه الصورة المُهينة لكرامتي، عليكِ أن تزيلي عني هذه الحبال فورًا.

إيليانا:

_اِهدأ، هروبك في هذا الوقت خطر عليك، لما لا ننتظر حلول الليل؛ سأساعدك على الهرب.

أنس:

_ولماذا تفعلين ذلك؟

إيلينا مبتسمة:

_لأني لا أحب أفراد هذه العصابة اللعينة، وكذلك لأني بدأت أستلطفك قليلاً.

أنس:

_أشعر بأنكِ تُريدين ترويضي بهذا الكلام لهدفٍ ما تسعين وراءه.

إيليانا:

_أنت كثير الشكوك يا أنس، لماذا لا تثق بي؟

أنس:

_سأثق بكِ إن أزلتِ عني هذه القيود فورًا.

دنت إيليانا مِن أنس وبدأت في إرخاء الحبال عن يديه، ورجليه وجسده؛ فأستوى واقفًا، ونظر غضبًا إلى آثار الحبال في معصميه وساقيه، وقد انحبس الدم عنهما وتغير لونهما، وإيليانا ترمقه بحذر وخوف؛ فنظر إليها بحنو ولُطف قائلاً:

_أشكركِ على هذا، لن أنسى لكِ هذا الجميل ما حييت.

إيليانا:

_انصرف حالاً قبل مجيئهم.

⋆★⋆

أنس:

_مَن هؤلاء الرجال الذين قاموا باقتيادي لهذا المكان؟

إيليانا:

لا شأن لك بهم، إنهم أفراد مِن عِصابة المافيا الخطيرة.

أنس:

_وماذا عنكِ؟

حين يعلمون بهروبي؛ سيؤذونك حتمًا.

إيليانا:

_سأتدبر أمري، لا تقلق.

أنس:

_لن أتخلى عنك؛ فقد أنقذتِ حياتي.

إيليانا:

_أنت طيب القلب، لو كنت في مكانك لهربت وتركتك خلفي.

أنس:

_لقد مررت بظروف صعبة لكي أصل إلى بلدكِ إيطاليا، علمتني هذه الظروف أن لا أتخلى عن أحد قدم لي المساعدة أبدًا.

إيلينا:

_أنت مليء بالأسرار أيها السندباد الأسمر، دائمًا ما يستهويني الأشخاص الذين هم مثلك على ندرتهم.

* ★ *

هروب..

بدأ أنس يسمع طرق أقدام مُقبله نحوهم؛ فالتفت جائلاً ببصره في أرجاء الغرفة، فأزاح الستائر عن الجدار؛ فوجد باب صغير غير الباب الرئيسي للغرفةِ يؤدي إلى مخرج، قائلاً لإيليانا:

مِن هُنا، هيا تحركي فلقد وصل هؤلاء السفلة.

ركض أنس وإيليانا مِن هذا المخرج السِري الشبيه بالسرداب، وهم يركضون رأوا وميض ضوء أمامهم بعيد بعض الشيء، لكنه يوحي بأن الطريق سالك وقد يوصلهم ليروا نور الشمس مِن جديد، بعد برهةٍ مِن الوقت وهما يركضان سريعًا وجدا نفسيهما خارج ذلك المكان المغلق، يقفان على الطريق العام المزدحم بالسيارات.

أشارت إيليانا لسائق عربة أجرة فتوقف، صعدا سويًا على العربة، وذهب بهم إلى ضاحية بعيدة مِن روما؛ تلك المدينة الكبيرة المكتظة بالسكان، حيث الكوخ الذي تقضي فيه إيليانا فترة اجازتها بعيدًا عن صخب مدينة روما وضوضائها.

دخل أنس وإيليانا ذلك الكوخ، ومِن حوله أشجار الصنوبر السامقة، وأشجار العنب والتين، نظر أنس مِن نافذة الكوخ الصغيرة؛ فرأى منظرًا أدهشه؛ فالكوخ مُطِلّ على جبل شاهق الارتفاع، أمام ذلك الجبل أرض منبسطة رحيبه مكتسية باخضرار الرونق، والعصافير والطيور تزقزق وتشدو في كل غصن ومِن كل ناحية، لم يتمالك أنس نفسه أمام روعة هذا المشهد الخصيب؛ فذرف الدموع، سألته إيليانا عن سر ذلك:

_لماذا تبكي يا أنس؟

★★★

أنس مبتسمًا يُكفكف دموعه:

_لقد حلمت كثيرًا بمشهدٍ كهذا أثناء عبوري بالصحراءِ وأنا بين الحياة والموت، بعدما وجدت نفسي في هذا المكان الرائع ومعي فتاة بمثل جمالك، أصابني ما ترين مِن الرِقة؛ فبكيت.

تأثرت إيليانا بكلمات أنس وتألم ضميرها؛ فبدى عليها الارتباك والحزن؛ فقال لها أنس:

_لكن لدي سؤال؛ أنتِ ساعدتني على الهروب والتخلص مِن هؤلاء الأوغاد الذين احتجزوني في تلك الغرفة الضيقة، لما فعلتي هذا؟!

إيليانا:

_سأجيب على جميع أسئلتك؛ فقد صرت الآن صديقي المقرب.

أنس:

_ كيف تعرفتي على هؤلاء الأوغاد؟

وما سبب تواجدكِ معي في تلك الغرفة؟

ازداد ارتباك إيليانا؛ فلم يخطر على بالها بأن أنس سيطرح عليها تلك الأسئلة بهذه السرعة..

إيليانا:

_ كما أخبرتك، فقط أردت مساعدتك لأني شعرت إزائك براحة، وكذلك لأني لا أحب أفراد هذه العصابة؛ فهم أشخاص سيئين جدًا.

أنس:

_ إذًا ما سبب تواجدكِ معهم، هل هناك سر ما تخفينه عني؟

إيليانا:

_إنها قصة طويلة؛ سأخبرك بها في الوقت المناسب.

أنس:

_لماذا لا تُخبريني بها الآن؟

إيليانا:

_لا أستطيع ذلك.

أنس:

_على هذا؛ فإني لا أستطيع البقاء معكِ، كيف أثق فيكِ وانتِ تُخفين عني شيئًا كهذا؟

إيليانا:

_لا أستطيع منعك مِن ذلك، يمكنك الذهاب إن رأيت ذلك ضروريًا.

حينها عزم أنس على الرحيل بلا تردد، في هذه الأثناء وردت مكالمة هاتفية لِإيلينا؛ فدخلت غرفتها واستقبلت المكالمة، كان المتصل هو جوزيف رجل المافيا، قائلًا لها:

_مرحبًا يا إيليانا، ها هو الفهد الأسير بحوزتك الآن.

إيليانا بغضب:

_اخرس يا جوزيف.

جوزيف بمكر:

★★★

_كم أنتِ بارعة، فقط أردت أن أعلمكِ بأننا خارج الكوخ ننتظر منكِ إشارة لبدء العملية، حاولي أن تشغليه وتشتتي انتباهه، وقدمي له الورقة ليوقع عليها بالموافقة.

إيليانا:

_لا يمكنكم فعل ذلك؛ سأخبره بالحقيقة الآن، لن أسمح لكم باستئصال كليته.

جوزيف:

_لا تكوني حمقاء، سنقتل والدك "فابيو" على الفور إن قمتي بذلك؛ فهو لا زال مدينًا لنا بالمال.

إيليانا:

_أرجوك لا تفعل.

جوزيف:

_إذًا افعلي ما طلبناه منكِ.

إيليانا:

_آسفة، لا أستطيع مجاراتكم في هذا، لا يُمكنكم فعل هذا بأنس.

جوزيف:

_إن سمحتِ له بالهروب سنقتله فورًا، وكذلك لا تنسي.. تذكري بأن والدك ما زال مدينًا لنا بالمال، وسنصل إليه و..

أنهت إيليانا المكالمة وخرجت مِن غرفتها؛ فوجدت أنس متجه نحو الباب يريد المغادرة، قالت له:

_أرجوك يا أنس لا تُغادر، أفراد العصابة في الخارج سيقومون بقتلك، عليك بالبقاء هنا.

أنس:

_آسف، لا يمكنني ذلك.

هرعت إيليانا إليه وأمسكت بذراعه وهي تبكي، تستجديه قائله:

_عليك بالبقاء يا أنس لا تغادر، هم في الخارج ينتظرونك، سيقومون بقتلك.

مواجهة..

أصرَّ أنس على رأيهِ وأفلت ذراعه مِن يدها ثم خرج؛ ليجد رجال العصابة خارج الكوخ في انتظاره، شرعوا في ضربهِ ومسدساتهم مصوبه نحوه، أُغشي عليه مِن شدة الضرب، حملوه إلى الكوخ على هذا الحال، حاولت إيليانا مقاومتهم؛ فقاموا بضربها هي أيضًا ضربًا مُبرحًا وقيدوها، وغطوا فمها بشريط محكم؛ لكي لا يُسمع صراخها.

شرَّع أفراد العصابة في تمديد أنس على السرير، وحقنوه بالمخدرِ وهو غائب عن الوعي تمامًا.

أثناء فترة الغيبوبة التي غطَّ فيها أنس إذا بهِ يرى أمه حجه النِعمة في المنام، وهي تُرَبت على كتفهِ كما كانت تفعل لإيقاظهِ وهو طفلٌ صغير؛ ليَستَعِدّ للذهابِ إلى المدرسة وهي تقول له:

_استيقظ يا أنس.

وتُردد أخرى بصوت أعلى:

_استيقظ يا أنس.

★★★

وهو يُجيبها بصوت ناعس:

_لم يُقرع جرس طابور الصباح، دعيني أنام قليلاً.

وهي تُكرر نفس الجملة:

_استيقظ يا أنس، استيقظ حالاً.

أثناء ذلك الحلم أحس أنس بوخزٍ شديد في جنبهِ، كأنها لدغات دبابير؛ فيصحو ليجد نفسه مُستلقيٍ على السرير ومِن حوله أناس على هيئة أطباء، بيدِ أحدهم مِشرط، المِشرط موضوع على بطنه، أحس أنس بألمِ الشفرة الحادة على جنبهِ الأيسر؛ فقام بالقبض على كف ذلك الرجل قبضةً قوية، انفرجت بها أصابع الرجل مِن قوة الضغط؛ فأوقع المِشرط من يدهِ وتراجع مذعورًا متفاجئًا خائفًا.

نهض أنس مِن على السريرِ بسرعة وهو لا يعي شيء تتسارع أنفاسه؛ فأخرج الإزميل المخبأ مِن بين فخذيهِ محاولاً الدفاع عن نفسه، وهو يصيح ويصرخ بأعلى صوته:

_ سأقتلكم يا سفله، سأقتلكم.

في هذه الأثناء سمع أفراد العصابة أصوات ضجيج في الخارج؛ فاعتقدوا بأنه تم اكتشافهم مِن قبل الشرطة؛ فهرب الجميع خوفًا، اتجهوا صوب باب الكوخ ليخرجوا، شرعوا في فتح الباب بسرعة ولاذوا بالفرار، خرج أنس مِن خلفهم فرآهم يصعدون على متن شاحنة سوداء صغيره ورأى داخلها جوزيف، انطلقت بهم الشاحنة بسرعه هائلة، حاول أنس استيضاح أرقام لوحه تلك الشاحنة، لكنه لم يستطع استبيان الأرقام.

دخل أنس الكوخ مرة أخرى، وتفقد إيليانا صائحًا بأعلى صوته:



_أين أنتِ يا إيليانا؟

إيليانا، إيليانا أين أنتِ؟

فسمع صوت جَلَبه في الخزانة، فتح أنس تلك الخزانة فوجد إيليانا مُقيدة بداخلها معصوب فمها، بها آثار كدمات على وجهها وجسدها، شرع أنس في تهدئتها وأزال القيود عنها وأزال الشريط مِن على فمها؛ فقالت له:

_لقد حاولوا قتلنا يا أنس، الأوغاد التافهين الحثالة، تبًا لهم.

أنس:

_اهدئي يا إيليانا؛ سأتصل بالشرطة الآن، وسأجعلهم يندمون على فعلتهم القذرة.

إيليانا:

_ لا، لا تفعل؛ سيقتلون أبي؛ فقد هددوني بذلك عِدة مرات.

أنس:

_ولماذا لم تُخبريني بذلك؟

إيليانا:

_لم تسنح لي الفرصة.

أنس:

_ كوني صادقه معي، ما علاقة هؤلاء الناس بكِ وبأبيكِ، هل كنتِ شريكتهم في هذه المؤامرة؟

فقد كنتِ تعلمين بقدومهم مسبقًا وقمتي بتحذيري مِن الخروج!

★★★

بدى على إيليانا الإعياء الشديد، وازداد ألمها بسبب الضربات التي تعرضت لها، ناظرة لأنس تحاول أن تُجيب على سؤاله، لكن صوتها كان مبحوحًا، تلفظ الكلمات بألمٍ شديد، نهض أنس إلى جوارها قائلاً:

_آسف؛ فقد كنت فظًا معكِ وأرهقتكِ بأسئلتي الكثيرة.

إيليانا ودموعها على خدها:

_لا عليك، أنا أيضًا تسببت لك بالكثير مِن الألم، سامحني يا أنس.

أنس:

_أنا أسامحكِ يا عزيزتي، لا بأس.

فابتسمت إيليانا بعد ذلك قائلة:

_أخيرًا سمعتك تُناديني بعزيزتي، مَرحى مرحى.

ابتسم أنس لابتسامةِ إيليانا؛ إلى أن وخزه الألم في جنبهِ، كشف أنس عن بطنه؛ فوجد قطرات مِن الدماءِ سائله عليها، وآثار جرح طفيف على جنبه مِن آثار المشرط.

ذُعرت إيلينا وظنت بأنهم قد أخرجوا كليته، طمأنها أنس:

_ لا تقلقي، الجرح سطحي وطفيف.

هرعت إيليانا لصندوق الإسعافات الأولية في كوخها، أخرجت منه مطهرًا للجروحِ وقطنًا، وشاش ومِقص صغير، ثم شرعت في معالجة جرح أنس، وهو بدوره وضع الكمادات الباردة على جبهة إيليانا المتورمة، وكذلك على كتفها وفخذها مكان الندبات التي تعرضت لها.

وهم على هذا الحال مُستلقيان سويًا على الاريكة، إلى أن غلبهم النعاس..

★★★

أنس:

_عليك بالاسترخاء الآن يا إيليانا سأوصد الأبواب بإحكام، لا تقلقي؛ فلن يعودوا مرة أخرى.

إيليانا:

_حسنًا، سأذهب لأنام.

أنس:

_تُصبحين على خير.

إيليانا:

_ستنام هُنا؟

أنس:

_ نعم؛ الأريكة مُريحه.

إيلينا:

_ جيد، خذ راحتك في المكان، مِن هنا تجد المطبخ، ومِن هذا الاتجاه يوجد الحمام.

أنس:

_ شكرًا لكِ.

إيليانا:

_على الرحب والسعة.

★★★

شوق وحنين إلى دفء قلب الأم، وحميمية الأهل..

حاول أنس أن ينام لكن شوقه لأمه حجه النِعمة طرد النعاس مِن أجفانه الوسنى، فجال بخاطرِهِ ذكرياته معها؛ فأهداها السلام وهو يفكر:

_سلامًا أمي يحيى بهِ قلبي المُحب لكِ، أُقبِل قدميكِ ويديكِ، سلامًا لألج باب الجنان وأنال جزيل البركات، تسمعين يا أماه نبضًا صريحًا مِن فؤادي المبتهل بالوفاء مِن محراب البكاء، جودي عليَّ بالرضا يا أماه تخضوضر أرضي، وسمائي تزدان بملايين الأنجمِ اللامعات، تاهت خُطاي في إيطاليا يا أماه وضلّت طريقها، والنور في دياجير الظلمةِ تاه، دعواتكِ لي أراها تصعد لسابع سماء، تسند قامتي بعد طول إعياء، وتدفع عني كل ضُرٍ وعناء؛ فأعيش في أتم سرور وهناء، يا أماه مِن أجلكِ دنياي إن قدمتها لكِ في طبقٍ من عسجدٍ براق تُعد أقل القليل مِن أفضالكِ وجمائلك التي لا تُوفى، وهل تفي الأرض الجدباء للغيومِ إذا هطلت عليها فصارت خضراء!

ظل أنس ساهرًا يرنو ويشتاق لسماع صوت أمه، في هذه الأثناء كانت أمه حجه النِعمة جالسة على السرير الذي كان ينام عليه أنس؛ فشدَّت الملاءة عليه جيدًا وظلت تتحسس السرير بيدها، ودموعها تنحدر على خديها متسائلة:

_أين أنت يا ولدي الآن؛ فقد كنت تنام هنا، ما زال سريرك دافئًا كما كان، إني لأشعر بوجودك فيه ولكني لا أراك، أين أنت الآن يا ولدي وكيف حالك في الغربة!

ظلت حجة النِعمة تبكي وجوالها الصغير في يدها، وهي تترقب رنينهُ واهتزازه؛ لعلها تسمع صوت ابنها أنس؛ فتنعم بسماع صوته وأنفاسه، حينها رن جوالها وفيه اتصال مِن رقم عالمي، عندما رأت ذلك الرقم اتسعت حدقات عينيها فرحًا، وبسم ثغرها طربًا؛ فنادت على زوجها مُزمل وهي ترد على المكالمة أسرع:

★★★

_يا مُزمل.. إنه أنس قد اتصل.

هرول مُزمل باسم الثغر تتسابق خطاه وتتشابك، في هذه الأثناء بدأت حجه النِعمة في الحديث مع أنس بلهفة، كان صوت أنس يجيئها متقطعًا؛ فشبكة الهاتف لم تكن جيدة في ذلك الحين..

أنس:

_مرحبًا يا أمي، هل تسمعينني؟

أنا أنس يا أمي.

حجه النِعمة لا تسعها الفرحة وهي تحاول رفع نبرات صوتها؛ ليصل صوتها الى أنس بوضوح:

_أسمعك يا ولدي، نعم أسمعك، كيف أحوالك، أريد الاطمئنان عليك.

كان صوت حجه النِعمة يصل لأنس متكسرًا متقطعًا بسبب ضعف شبكة الاتصال؛ فيجبيها انس:

_لا أسمعكِ جيدًا يا أمي؛ لعل شبكة الاتصال بها مشكلة.

خرجت حجه النِعمة بالهاتف لباحة الدار؛ فبدأت شبكة الاتصال تتحسن شيئًا فشيئًا وهي بالخارج، فتتواصل المكالمة بصوره جيدة بينهما..

حجه النِعمة:

_كيف هي صحتك يا ولدي، هل أنت بخير؟

أنس:

_أنا في صحة وعافية يا أمي، كيف أحوالكم؟

★★★

حجه النِعمة:

_الحمد لله أني سمعت صوتك واطمأننت عليك، هل ينقصك شيء يا ولدي؟

أنس:

_لا ينقصني شيء سوى رؤيتك وعناقك؛ فقد اشتقت لكم كثيرًا.

حجه النِعمة:

_هل سيطول غيابك في تلك البلاد يا ولدي؟

أنس:

_سأعمل على أن لا تطول مُدة غيابي عنكِ يا أمي.

حجه النِعمة:

_ربنا يُسهل أمركِ ويحفظك يا ولدي، ويرعاك.

أنس:

_عفوكِ يا أمي.

حجة النِعمة:

_عافية وراضية عنك يا ولدي.

أنس:

_كيف أحوال أبي، هل هو قريب منكِ؟

حجه النِعمة:

_نعم هو بجواري، يُريد مكالمتك.

***

مُزمل:

_أنس، كيف حالك يا ابني؟

أنس:

_أنا بخير يا أبي، أشتاق لك.

مُزمل:

_وأنا كذلك يا ولدي، فلهذه اللحظة وأنا أكلمك لا أصدق بأنك فعلاً سافرت عنا.

أنس:

_أنت وأمي وأختي هاديه معي على الدوام، لا تغيبون عن بالي ثانية.

مُزمل:

_اعتني بنفسك جيدًا يا ولدي.

أنس:

_سأفعل يا أبي.

في هذه الأثناء استيقظت هاديه وأرادت مكالمة أخيها أنس..

هادية:

_أخي أنس، كيف حالك؟

أنس:

_أنا بخير يا هادية، هل ما زلتِ مواظبة على الاطلاع على المجلات؟

هاديه:

_بكل تأكيد.

أنس:

_هذا جيد؛ فقد اشتريت لكِ عِدة مجلات وباللغة العربية، وجدتها في مكتبة هنا في إيطاليا، ستصلك نهاية هذا الأسبوع إن شاء الله.

هاديه ودموعها على خدها:

_اعتني بنفسك يا أخي؛ فهذه أجمل هديه تقدمها لي.

أنس:

_سأفعل يا أختي، يبدو أن رصيدي قد شارف على النهاية؛ سأعاود الاتصال بكم، كونوا بخير.

هاديه:

_مع السلامة يا أنس.

نظر أنس إلى ساعته وقد أشارت عقاربها إلى السادسة والنصف صباحًا؛ فغفى أنس وهو مازال مُضجعا على الأريكة.

الفصل الثالث

حوار..

رنّ جرس الساعة؛ فهي الآن السابعة والنصف صباحًا، صحت إيليانا فوجدت أنس قد أعد الإفطار باكرًا، جلسا وتناولا وجبتهُما مع كأسِ الحليب..

إيليانا:

_علينا مغادرة هذا الكوخ، والرحيل إلى مكان آخر.

أنس:

_لماذا؟

ثم أردف قائلاً قبل أن تُجيب:

_لا تقلقي، لن يعود أفراد العصابة مرة أخرى.

إيليانا:

_ما داموا يعرفون مكان تواجدنا؛ فلن يتركوننا وشأننا علينا المغادرة.

أنس:

_أين سنذهب؟

إيليانا:

_سنذهب إلى مدينةِ "الفاتيكان" شمالاً، حيث منزل صديقتي "سيلينا".

أنس:

_هل ستتقبل صديقتك وجود الغرباءِ في منزلها؟

لا أريد أن أكون ثقيل الظل عليها.

إيليانا:

_هي غير موجوده فيه؛ لقد رحلت إلى إسبانيا مع صديقها، وأعطتني مفاتيح منزلها لحين عودتها.

أنس:

_إذًا أنتما صديقتانِ مقربتان؟

إيليانا:

_نعم؛ لقد درسنا الفن التشكيلي سويًا في المعهد.

أنس:

_نعم لاحظت وجود بعض اللوحات على جدران كوخك، لم أكن أدري بأنكِ أنتِ مَن قمتِ برسمها، أنتِ بارعة جدًا ومذهله.

إيليانا مبتسمة:

_يستهويني الرسم والنحت كثيرًا؛ لذا أحاول أن أبرع فيهما كحال جدي لويس؛ فقد كان نحاتًا بارعًا.

أنس باستغراب شديد:

_تقولين أن جدكِ اسمه لويس، وكذلك أباكِ اسمه فابيو! لا يمكن أن تكون تلك مصادفة أو تشابه في الأسماء!

إيليانا مبتسمة:

_هل كنت تعرفهما؟!

أنس:

_أنا لا أمزح، أوصاني أبي بإيصال أمانة إلى جدك لويس؛ فقد كان يعيش في بلدي السودان.

إيليانا باستغراب:

_لا أعلم عن هذا شيئًا؛ فقط أعلم بأن جدي اختفى منذ أمد بعيد؛ هروبًا مِن عصابة المافيا التي كانت تطارده، ولكن علينا الذهاب الآن يا أنس، سنواصل ما انقطع مِن حديثنا فور وصولنا لمنزل سيلينا.

ركب أنس وإيليانا القطار وذهبا إلى مدينة الفاتيكان، وصل أنس وإيليانا ودخلا منزل سيلينا، كان المنزل بسيط جدًا ومرتب بشكل جيد، يطل على كاتدرائية القديس بطرس بمدينة الفاتيكان، انبهر أنس بالزخارف والأشكال الجميلة المزينة لمبنى الكاتدرائية؛ فقال لِإيليانا مُشيرًا إلى المبنى:

_علينا الذهاب لرؤية هذا المكان عن كثب.

إيليانا:

_نعم سنزوره؛ فهو أحد المعالم الهامة في المدينة، به تحف وتماثيل صنعها الفنان العبقري "مايكل أنجلو".

أنس:

_مايكل أنجلو؟!

إيليانا:

_ألا تعرفه يا أنس؟

أنس:

_هل هو شهير كدافنشي صاحب لوحة "الموناليزا"؟

إيلينا:

_إنه لا يقل إبداعًا عن ليوناردو دافينشي؛ فلكل واحد منهما ما يميزه، أنجلو ودافينشي عاشا في نفس العصر؛ فكانت لهما إسهامات كبيره في عصر النهضة.

أنس:

_صرت متشوقًا للذهابِ لرؤيه إبداع ذلك الرجل الفريد.

إيليانا مبتسمة:

_لك ذلك.

أنس:

_لكني متشوق أكثر لمعرفة قصة جدكِ الذي عاشا بيننا في السودان، هذا الأمر مرتبط بأمانه يجب أن أوصلها له.

إيليانا:

_لم أفهم مقصدك مِن هذا الكلام، لكني سأسرد لك تلك القصة المُحزنة.

أنس:

_آسف لذلك.

إيليانا:

_لا بأس؛ سأحكي لك ما جرى.

قالت في حديث طويل، وأنس يستمع لها:

_كان جدي لويس يعيش هو وأبي في "فلورنسا" وقد ولدت هُناك، أمي هي السيدة "سوسن" وهي مِن أصول مغربية، تزوجها أبي بعد قصة حب مفعمة بالعواطفِ عاشاها سويًا، جدي لويس نحات بارع، ظل طول حياته معجبًا بمايكل أنجلو وقد حاول أن يسلك نفس منهجه الإبداعي في النحت، وقد نجح في ذلك كثيرًا وصار مشهورًا في أوربا وإيطاليا، كان يطمح للوصول لأعلى قمم الشهرة والثروة، مما جعله يتعامل مع بعض العصابات المشبوهة التي تقوم بسرقة التحف والقطع الفنية النادرة، كان جدي لويس مُقلدًا بارعًا للأعمالِ الفنية الشهيرة مِن رسم ونحت، عندما تشرع العصابة في التخطيط لسرقة عمل فني أو تحفة، كان جدي يصنع لهم نسخة مُطابقه منها يضعونها مكان النسخة الأصلية المسروقة، مع العلم أن النسخ الأصلية للأعمال الشهيرة والقيمة لا تُعلق على الجدران، اللوحات القيمة التي نراها على جدران المتاحف ما هي إلا نسخ مقلده للوحاتِ الأصلية؛ وذلك لتفادي عمليات السرقة، كانت النسخ الأصلية تُحفظ في خزانات محكمة الإغلاق في أماكن سريه، بالرغم مِن ذلك كان أفراد العصابة يصلون لتلك الأماكن ويسرقون ما في الخزانات مِن تُحف ولوحات ومقتنيات قيمة، إلى أن توصلت لهم الشرطة؛ فقامت بالقبضِ عليهم جميعًا وتخليص تلك المسروقات مِن أيديهم، كانت الشكوك بعيدة عن جدي لويس وأبي؛ لذا لجأت العصابة إلى استئمانهم على بعض التحف والآثار، منها إزميل أثري تبلغ قيمته أربعه ملايين دولار، يعود هذا الإزميل للمهندس المعماري والرسام والشاعر والنحات الشهير "مايكل أنجلو" الذي سنذهب سويًا لرؤية منحوتاته الرخامية الضخمة داخل الكاتدرائية، ذكر "مايكل أنجلو" هذا الإزميل في إحدى مقولاته الشهيرة التي يحفظها ويرددها الكثير مِن الإيطاليين، خصوصًا الذين يعيشون في مدينة "أريتسو" التي قد عاش فيها "مايكل أنجلو" وقضى فيها أجمل أيامهِ، إذ قال ذات مرة:

"إن كان هناك بعض الخير والجمال في نفسي؛ فهذا لأنني ولدت في البيئة الرقيقة لبلدكم "أريتسو" جنبًا إلى جنب مع حليب مُرضعتي، لقد شربت موهبة التعامل مع الإزميل والمطرقة، تلك الأدوات التي أصنع بها أعمالي."

ظهر أفراد هذه العصابة مِن جديد وطلبوا مِن جدي وأبي استرجاع الإزميل الأثري؛ لكن جدي رفض ذلك، ازدادت مُضايقة وملاحقة أفراد العصابة لجدي وأبي، وتعرضا لعدة محاولات اغتيال، في هذا الوقت العصيب اختفى جدي وأبي الذي كان شابًا يافعًا في ذلك الوقت، هاجر أبي مع جدي واختفيا لمده تجاوزت ثمانية وعشرين عامًا، ترك والدتي في وقت حملها بي، لم يظهر أبي إلا بعد وفاة جدي؛ الذي أخبرني بأنه توفي في مدينة "اسطنبول" في تركيا، منذ ذلك الحين وإلى الآن ما زالت عصابة المافيا تسعى خلف أبي لاسترجاع الإزميل منه، ولكن للآسف أضاع جدي الإزميل، استطاع أبي جمع مبلغ ثلاثة ملايين وأربعين ألف دولار تعويضًا عن ثمن الإزميل الذي أضاعه جدي، ثم أعطى ذلك المبلغ لأفراد العصابة، لكنهم لم يكفوا عن مُلاحقة أبي إذا لم يعطيهم ثمن الإزميل كاملاً..

دائمًا ما كانت العصابة تُهدد أبي بالقتل إن لم يوفيهم السِتين ألف دولار المُتبقية، لقد حولوا حياتنا إلى جحيم لا يُطاق يا أنس، لم نعد نملك مِن المال شيئًا، كيف سنعطيهم ما يريدون!

بدأت إيليانا في ذرف الدموع، وواصلت حديثها:

_حاولت تخليص أبي مِن ذلك الجحيم؛ فقد توفيت والدتي وجدي لويس، لم يعد لي أحد غيره، لا أريده أن يموت يا أنس؛ لذلك عملت مع تلك العصابة طوال هذه الفترة وساعدتهم في فعل الكثير مِن الأشياء السيئة، أعذرني يا أنس فقد تسببت لك بالألم، نعم.. أنا آسفة يا أنس؛ فالندم يُمزق قلبي الآن، لا أستطيع مصارحتك بالذي كنت أنوى فعله بك.

***

أنس:

_لا عليكِ يا إيليانا، اهدئي.. فأنا على كل حال قد سامحتك على ما مضى.

إيليانا:

أنا لا أستحق هذه المعاملة منك؛ فقد عاونت أفراد العصابة على استدراجك لذلك الكوخ، كانوا.. كانوا سيسرقون كليتك يا أنس، كل هذا بسببي.

ازداد بكاء ونشيج إيليانا بصوره أفزعت أنس؛ فقال لها وعيناه تذرفان الدمع:

_لا تظني بأني كنت غافلاً عن هذا، كنت أعلم أن وراء مجيئي معكِ للكوخ سر قد يؤدي لقتلي؛ لكني بالرغم مِن ذلك جازفت وتغافلت، ثم أتيت معك وأنا لا أبالي بشيء إطلاقًا.

إيليانا باستغراب:

_ولماذا فعلت ذلك؟

أنس:

_لا أدري، فعلت وحسب.

إيليانا:

_فعلت ذلك لأنك تُحبني!

أنس:

_لم أقل ذلك.

إيليانا:

_عيناك تقول ذلك، اهتمامك بي، مُسامحتك لي، خوفك عليّ، مُجازفتك بالقدوم معي للكوخ.

أنس:

_لم يحدث.

إيليانا:

_لم يحدث ماذا؟

أنس:

_هل ستكثرين مِن طرح الأسئلة؟

إيليانا:

_هل هذا يزعجك؟

أنس:

_نعم يُزعجني.

إيليانا مبتسمة:

_إذًا أيها المنزعج لنخرج ونرى الكاتدرائية.

أنس:

_أريد أن أخبركِ بشيء أنا أيضًا، ستذهلين لسماعه.

إيليانا مبتسمة، قابضه بكف أنس:

_علينا بالذهاب أيها الثرثار، عندما نعود أخبرني.

أنس:



_هيا أيتها المشاكسة.

استكشاف..

ذهب أنس مع إيليانا لرؤية تلك الكاتدرائية العجيبة، دخل أنس فاندهش لروعه المكان وفخامته، وازدحام السياح والزوار عليه؛ فشاهد تمثال ضخم شاهق لسيدة تحمل ولدها بين ذراعيها ترمقه بحزن وحنان وأسى؛ فسأل إيليانا عن ذلك التمثال؛ فأخبرته بأنه تمثال بيتتا العذراء، وهو مِن روائع ما نحت "مايكل أنجلو" ظل أنس ينظر لروعة ذلك العمل الفني النادر بما فيه مِن روعه تأخذ بالألباب، وتساءل كيف استطاع مايكل أنجلو أن يشكل مِن الرخام شيئًا كهذا وبهذه التفاصيل المتقنة، يا ترى كم أخذ مِن الوقت ليصنع هذه التحفة الفنية النادرة، أنس رجل حِرفي يدري بالمشقة والمجهود الذي يتطلب نحت شكل كهذا، لابد أن مايكل أنجلو قضى سنوات عديده لإنجاز ذلك العمل الضخم، في هذه الأثناء قدمت امرأة كبيرة في السن وسألت أنس:

_مِن أي البلاد أنت يا فتي؟

أنس:

_مِن السودان.

السيدة:

_لاحظت انبهارك الكبير بالتمثال.

أنس:

_نعم، أنا منبهر بجمال ذلك التمثال؛ فمايكل أنجلو رجل بارع في النحت، إنه مذهل حقًا.

السيدة مبتسمة:

_أعجبني تمثال (أباداماك) في بلدكم السودان.

فقال لها أنس باستغراب:

_هل رأيت ذلك التمثال؟!

السيدة:

_نعم؛ فأنا باحثة أثريه لي عِدة أبحاث عن الحضارة الكوشية.

ابتسم أنس وقد أعجبه اهتمام تلك المرأة بحضارة بلدهُ؛ فسألها:

_هل زرتِ السودان؟

السيدة:

_لا، لكني أسعى لذلك، سأزوره قريبًا.

أنس:

_لم أتعرف على اسمك؟

السيدة:

_اسمي ميرلانا أنطونيو.

أنس:

_سعدت بلقائك سيدة ميرلانا، أنا اسمي أنس، أسكن مع صديقتي في الضاحية القريبة مِن هنا، يمكنك زيارتنا إن أحببتِ ذلك.

ميرلانا:

_سأحاول زيارتك؛ فأنا أحب السودانيين لحسن تعاملهم، خاصة مع كبار السن؛ فهم يحترمونهم ويقدرونهم بشكل ملحوظ.

★★★

أنس:

_شكرًا لكِ، أتمنى أن أكون عند حُسن ظنكِ.

في هذه الأثناء قدِمت إيليانا للمكانِ الذي يقف فيه أنس؛ فوجدته مُحاط بالكثيرِ مِن الناس ومِن بينهم فتيات، يبادلونه التحيات والكلمات والابتسامات؛ فأشارت له ونادته قائلة:

_أنت سريع الانسجام يا أنس واجتماعي بشكل ملحوظ، إني أحب هذه الصفة في شخصيتك.

أنس:

_ليس لهذه الدرجة، فقط أنا أحب تبادل الحديث ومُخالطة الناس في بعض الأوقات؛ فإني أسعد بذلك.

إيليانا:

_إذًا فلنذهب لتبادل الحديث في المنزل؛ فإني شعرت بالملل هنا.

أنس:

_هذا جيد، لنذهب إذًا.

وصل أنس وإيليانا للمنزل بادي عليهما الإرهاق، سألته إيليانا: ما الذي كنت تود إخباري بهِ قبل ذهابنا للكاتدرائية؟

أنس:

_إنها قصة طويلة؛ سأخبركِ بها بعد أن ننال قسطًا يسيرًا مِن الراحة.

* * *

وصيه..

اضطجع أنس على الأريكة ودخلت إيليانا إلى غرفتها ونامت، غفى أنس على أريكته واسترسل في النومِ، أثناء ذلك إذا به يرى والده مُزمل في المنام وهو باسم الثغر يرتدي جلبابًا أبيض؛ فمسح على رأسهِ وقال له:

_أعد الإزميل المسروق لأصحابهِ الحقيقين ولا تُفرط، إياك أن تُضيع الأمانة كما فعل لويس.

نهض أنس مِن نومه فزعًا وهو يُردد:

_حاضر يا أبي سأفعل، حاضر يأبي سأفعل.

في هذه الأثناء قدمت إيليانا وجلست بجوارِهِ على الأريكة قائلة:

_ماذا هناك يا أنس؟

أنس:

_إيليانا.. هذا الإزميل الذي تحدثتِ عنه ليس لجدك لويس؛ فصاحبه الحقيقي هو الشعب الإيطالي، الشعوب تحيى بتاريخها وآثارها، وإبداعها وحضارتها، هذا الإزميل يجب أن يعود لأصحابه الحقيقين، علينا فعل ذلك يا إيليانا.

إيليانا مندهشة:

_عن أي إزميل تتحدث؟

أخرج أنس الإزميل مِن جيبهِ وأراه لِإيليانا قائلاً:

_إنه سر الإزميل، إنه سر الإزميل الذي كان بحوزة جدك لويس.

إيليانا مندهشة:

_ماذا تقصد! هل هذا هو..

★★★

أنس:

_نعم إنه الإزميل المفقود؛ فقد وجده والدي بالقرب مِن المنزل الذي سكنه جدك لويس عندما كان في السودان.

إيليانا:

_لا أصدق، هذا غير معقول.

أنس:

_سأتصل بالسيدة ميرلانا التي التقيتها في الكاتدرائية لتجيء إلينا وتؤكد لكِ صحة ما أقول؛ فهي خبيرة في الآثار.

إيليانا:

_إذًا جدي طيلة سنوات اختفائه كان يعيش في السودان!

أنس:

_سنتأكد مِن السيدة ميرلانا، إن كان الإزميل حقيقيًا؛ فهذا يعني أنه عاش في السودان وأضاع الإزميل هناك.

إيليانا:

_أخبرني أبي قديمًا أنه عاش مع جدي عِدة سنوات في بلد أفريقي كبير وسط أفريقيا، ثم ذهب منه إلى تركيا إلى أن ذهب إليه أبي بعد عدة سنوات، لكنه وجده قد توفي هناك.

أنس:

_إذًا جدك عاش في السودان، وتُوفي في تركيا.

* ★ *

إيليانا:

_لا أدري، الإزميل سيكشف لنا هذا السر، إن كان الإزميل أصليًا؛ فهذا يعني أن جدي عاش في السودان وأضاعه هناك.

أنس:

_سأتصل بالسيدة ميرلانا لنتأكد.

رأس المال..

اتصل أنس بالسيدة ميرلانا وأخبرها الخبر؛ فجاءت على الفور، أنس وإيليانا عرضا الإزميل عليها لتتفحصه، شرعت السيدة ميرلانا في تفحص الإزميل بعناية؛ فأكدت لهما بأنه إزميل مايكل أنجلو المفقود، وقيمته تتجاوز الأربعة ملايين دولار، صُدمت إيليانا وذُهلت مِن هذه المفاجأة وكذلك أنس، ثم خرجت السيدة ميرلانا مِن عندهما، بعدها شرعا في التفكر فيما بينهما، رأت إيليانا بأن يقوما ببيع الإزميل في إسبانيا ويقتسما المبلغ فيما بينهما، رفض أنس ذلك رفضًا قاطعًا؛ فقالت له إيليانا:

_لا أفهم سبب رفضك يا أنس، كيف لك أن ترفض أن تكون مِن أصحاب رؤوس الأموال!

أنس:

_المال ليس كل شيء، وليس هو سبب السعادة، السعادة تكمن داخلنا يا إيليانا.

شرعت إيليانا في إقناع أنس بوجهة نظرها:



_نعم ما تقوله صحيح، المال ليس سببًا في السعادة، لكنه قد يدفع عنا الكثير من الأذى.

أنس:

_ماذا تقصدين؟

إيليانا:

_أقصد بذلك أن الأقدام التي كانت ستركلك وأنت مضطجع على الرصيف جائعًا بلا مأوى يا أنس، لن تفعل ذلك مرةً أخرى، بل سيشرعون في تقبيل حذائك، كذلك الأعين التي كانت سترمقك شذرًا محتقرة لهيئتك الرثة وأثوابك الباليه؛ سترنو إليك بانبهار، هيئات الهجرة التي ظلت تعاملك بازدراء؛ ستقدم لك خدماتها بسخاء وستعمل على تهيئة المناخ والظروف الجيدة لوجودك هنا في إيطاليا؛ فقد صرت مليونيرًا ومِن أصحاب رؤوس الأموال.

آهٍ مِن رؤوسِ الأموال وجبروتها وهي تُدير الكرة الأرضية عكس مسارها الصحيح؛ لتدور حول شمس زائفه، غير شمسها الحقيقية، شمس يضبط ضوئها وإشراقها الاقتصاد، وتحكمها أعمدةِ البورصة، ترتفع أشعتها بارتفاع الأسهم بسوق التداول، وتنخفض أشعتها بانخفاض تلك الأسهم بسوق التداول أيضًا، آهٍ مِن هذه الشمس المزيفة، كم زيفت مِن مواقف وإدانات، كلماتٍ وقمم، مؤتمرات وتصريحات، إدانات وقرارات، آهٍ مِن تلك الشمسِ المزيفة كم أشرقت على حروب وويلات، وكم غربت على دموعٍ وصرخات، آهٍ منها وقاد ساد الظلام بضوئها المطموس المُرائي، آهٍ منها وهي تُفرق وتُجمِع، تبعثر وتُلَملِم، تُمزق وتُرَقع، تَفصِل وتُوحِد، آهٍ منها وهي منصهرة بنيران العدم تُذيب الضمائر؛ ليصير الوجود وجود الألم.

★★★



أداء الأمانة..

أنس:

يا إيليانا لن أخون الأمانة من أجلكِ، ولن أخسر ثقة والدي؛ فقد طلب مِني إعادة هذا الإزميل لأصحابه الحقيقين، جدك لويس ليس صاحب الإزميل؛ فهو سرقه مِن عصابةٍ سرقته مِن شعب إيطاليا يا إيليانا، أعلم بأنكِ مررت بمِحن عظيمة وآلام كبيره؛ فقد فقدتي جدكِ وأمكِ الحبيبة وأباكِ يتربص به خطر عظيم وقد يُقتل في أي لحظة، علمتني الصحراء يا إيليانا بأنه عند الصعاب ينكشف الزيف وتظهر جواهر البشر ويتضح معدنهم الصريح، في مثل هذه الظروف القاسية رأيت أناسًا كثيرين يتساقطون أمامي، في تلك الأوقات لم تكن تصمد إلا الأفعال والقرارات الصحيحة، نعم قد تكون قاسيه ومؤلمة، لكن بنهاية المطاف يكون ذلك الفعل الصحيح والقرار السليم به راحة عظيمه ولذة كبرى، لا يصف مدى روعه هذه الراحة واللذة إلا مَن ذاقها، نعم قد يحل لنا هذا الإزميل جميع مشاكلنا أنا وأنتِ يا إيليانا وسنبنى به أحلامنا، ولكن مَن يضمن بعد ذلك بأن مشاكلنا ستنتهي للأبد، نعم قد يتلاشى الكثير منها وكذلك قد يأتي الكثير، وتلك الأحلام المبنية بهذا المال الغير مستحق، قد تظل شاهقة ومتماسكة، لكن مَن يضمن بأنها ستظل كذلك للأبد وأنها لن تنهار في لمحه، إذًا يا إيليانا فلنعمل على راحة ضمائرنا؛ فإنها الراحة الحقيقة التي تدوم ولا تنفد، ليس بوسعي ووسعك الآن إلا نبلغ الشرطة لتتخذ إجراءاتها إزاء هؤلاء المجرمين والقتلة، بذلك نضمن سلامة والدك منهم، نعم فإن والدكِ وجدك لويس قد وقعا في خطأ كبير، لكن بوسعنا الآن يا إيليانا تَدارُك ذلك الخطأ قبل فوات الأوان، علينا إعادة الإزميل المنهوب للمتحف الوطني الإيطالي؛ لتتعلم الأجيال سر الإزميل وسر الصبر، وسر الكفاح وسر الاجتهاد الذي شيَّد به رائد عصر النهضة مايكل أنجلو المجد والإبداع والإلهام في إيطاليا، المتجلي في تماثيلِه المتقنة وفي

لوحاته الفريدة النادرة؛ التي قام بإنجازها وتكوينها لتكون هذه الأعمال الخالدة مِشعلاً وقبسًا وهاجًا ونورًا مبينًا، تستبين به الأمة الإيطالية والعالم أجمع معالم طريق تقدمه وريادته وتطوره.

تضحية..

استجابت إيليانا لرأي أنس واتفقا على إعادة الإزميل للمتحف الإيطالي مهما كانت العواقب، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ وشت بهما السيدة ميرلانا وذلك حينما رأت الازميل بحوزتهما أثناء تفحصها له، بعد أن اكتشفت بأن هذا الإزميل هو الإزميل الحقيقي الذي استخدمه مايكل أنجلو وقيمته تفوق الاربعة ملايين دولار، أغراها وأعماها الطمع والجشع، كان لِميرلانا صلة تجمعها بأفراد ينتمون لجماعات صائدي الكنوز، تلك الجماعات الإجرامية المتطرفة، المتورطة في تهريب الآثار وسرقتها عالميًا؛ فاتفقت معهم بأن يسرقوا الإزميل مِن أنس وإيليانا، ويعطونها ربع ثمنه نقدًا بعد بيعه، اقتحم هؤلاء الناس المنزل الذي به أنس وإيليانا وأطلقوا النار عليهما بعشوائية؛ فكانت إصاباتهم بالغة الخطورة، ثم تدخلت الشرطة وقامت بإلقاء القبض على أفراد العصابة ولكن بعد فوات الأوان، أثناء عملية إطلاق النار كان الإزميل بحوزة أنس في المكان الذي تعود أن يخفيه فيه دائمًا بين فخذيه، أخرج أنس الإزميل وقام بتسليمه لرجال الشرطة الذين اصطفوا حوله وهو مضرج في دمائه.

كانت الإصابات التي تعرض لها أنس وإيليانا خطيرة جدًا، تم نقلهما على إثرها للمستشفى، في المستشفى انطوت صفحة حياة أنس وفارق الحياة، في ذلك المشفى سكنت أنفاس أنس وتوقف نبضه، في ذلك المشفى انطفأ صوت أنس وأُخمدت ضحكاته، في هذه اللحظة وصل الخبر، خبر وفاة أنس لأمه حجه النِعمة ولأبيه مُزمل؛ بعد أن اتصلت الشرطة بهم وأخبروهم الخبر، كتب أنس

بمداد مِن دمه النازف على ورقة صغيره كانت بجواره لحظه سقوطه رسالة أخيره لوالديه:

_قد سلمت الأمانة يا أبي، كذلك روحي هي أمانة سلمتها لربي فلن يضيعني؛ سأشتاق لكم؛ سنلتقي في الجنة إن شاء الله.

منزل سماوي..

الآن لم يعد أنس غريبًا بل صار قريبًا مِن حلمه السماوي السعيد، عندما صعَّدت بي أجنحة الملائكة فوق الغمام الذهبي الرائع، صوب عالم متناهي الجمال، بلغ مِن درجات الروعة ما يعجز الحِس عن إدراكه، جمال سامي يفوق كل ما هو مرئي بالعينِ مهما تخيلت وتأملت، الرؤى خضراء باخضرار يفوق الاخضرار إلى نضارة لا متناهيه لا يعتريها اصفرار، عالم به الأمنيات بيضاء ونقيه تفوق حدود الصفاء إلى ما هو أزهى مِن النور، وأنظف مِن الضوء، كل شيء حوله الآن هادئ تمامًا هدوء يرفعه لأعلى ويغمره بالسرور الدائم الذي لا تشوبه ذرة حزن، كل شيء حوله مُريح، راحه تشبه راحة ضمير لم يقترف أدنى خطئيه قط، لم تمت روحه يا إيليانا، فقط توقف نبضه للحظات وسكن جسدهُ المأسور في سجن دنياه الصغيرة المقترنة بالزوال والفناء؛ فحلقت روحه عاليًا علوًا أعلى مِن حدود الفضاء، سيغيب عنكِ لنذرٍ يسير مِن الوقت، وقت أقل مِن أن يحسب، سيغيب عنكِ يا إيليانا بجسدهِ لكن روحه ستظللكِ وتهديكِ أكاليل الورد اللطيف، وتطمأنكِ في كل حال مخيف، موته ساقه لأماكنٍ أرحب وأطيَّب ليظفر ببداية البدايات، حيث اللانهائيات ودوام المسرات، لقد صارت روحه السماوية أكبر مِن جسده الذي تناوشه بضعة رصاصات ضعيفة صغيره، تافهة بسخافة البندقية التي أطلقتها مِن فوهتها، في لحظاتٍ فقدت فيها القلوب شعورها الحقيقي بإنسانيتها الصادقة؛ لتغرق في وحل الأطماع السافلة، المحترقة

بالشرِهِ والطمع الذميم، إنه الآن سعيد لأنه لم يستنشق تلك الروائح النتنة والعفونة الكريهة، وسمى عنها ليستنشق عبير وأريج سامي امتزج بروحه وهي تسمو بإذن الله وتصعد.

لقد أنزل عبئ الإزميل الثقيل عن كاهله بأدائهِ للأمانة وإعادة الإزميل لأصحابهِ، بذلك الفعل والقرار السليم حفر اسمه على صخر الحقيقة، وودع السراب وفارق العذاب، لم يبقى له إلا التأمل في النعيمِ الكبير الذي هو فيه وحبوره وغمائه؛ فقد ودع شقائه وعنائه للأبد، ها قد استراحت أقدامه مِن مسيرها الذي كان مِضنيًا على الصحاري والقفار البعيدة؛ فصار يجول في أعلى أعلى مدار، مدار مُتصل بمدارٍ أعلى مِن كل مدار، في مكانٍ متسع أوسع مِن مفردات اللغة مهما أوتيت مِن بيان وتبيان، قد ترك الماضي خلفه واستقبل المستقبل الحقيقي أمامه بترحابٍ وبشرى عظيمه.

تعرضت إيليانا لثلاثة إصابات في أنحاءٍ متفرقة مِن جسدها جراء إطلاق النار عليهما مِن قبل أفراد العصابة، أصيبت برصاصة في كتفها وشظيه استقرت في رجلها، وأخرى في صدرها قد أخطأت مكان قلبها بمسافة لا تتجاوز السنتيمتر الواحد؛ فنجت مِن الموت بأعجوبة، أما أنس فقد كانت إصابته بالغة الخطورة فهي في الرأس تمامًا؛ لذا قُدر أن يفارق الحياة، ظلت إيليانا طريحة فراش المستشفى لثلاثة أسابيع، وهي لا تتوقف عن السؤال عن أنس، مما اضطر الأطباء لإخبارها بالحقيقة، مع كونها كانت في وضع صحي حرج جدًا، أخبرها الأطباء بأن أنس لم ينجو، برغم مِن كل محاولاتهم الحثيثة لإنقاذه، فارق الحياة متأثرًا بتلك الرصاصة التي اخترقت جمجمته، كانت إيليانا تحس بدنو تلك اللحظة؛ لأنه قبل وقت يسير مِن مَقدم أفراد العصابة وإطلاق النار عليهما، قد قال لها وهو يحتضنها.. بأن رحلته قد أوشكت على النهاية، وصارحها بأنه يحبها.

★★★

لم تفهم حينها إيليانا المغزى البعيد مِن كلامه، لكنها أحست بشوق عظيم يعتري قلبها، مما دفعها لإطالة المكوث بين أحضانه، وهي تتلمس جسده وتتنشق رائحته طويلاً.

تعافت إيليانا من إصابتها، لكن ذكرى أنس لم تكن تفارقها أبدًا، صوته ما زال يرن في أذنها، كلماته الإيطالية التي كان لا يُحسن نطقها، ظلت إيليانا تنطقها بالكيفية التي كان ينطق بها أنس؛ فتأنس بذلك وتستريح، آهٍ حينما يصير الحب لغة تتكلم بها المشاعر قبل الألسنة، رسمت إيلينا ما يُقارب الأربعين لوحة بأناملها، كانت كل تلك اللوحات تحوي ملامح أنس، عندما يسألها البعض عن سر روعة وجمال لوحاتها؛ فكانت تجيبهم ليست لوحاتي بالروعة التي تتصورون، إنها روعة حبي للسندبادِ الأسمر الذي لا زلت أتنفس جماله برئتي.

يا موتى الليل الضوء لا يُهزم، يخفت حيناً ولا يموت، يا مذابح الاستفهام ويا حُزن السؤال، أين هي إشراقات اللون الجريء الطائر بأجنحة الفراشات، وشفافية الألوان المائية الذائبة في المسامات، انطقي بفم الأنامل يا إيليانا، تكلمي بجميع لغات العالم بالعشق اللوني عاكس المدار الكوني، ارسمي فالضوء لا يُهزم، يخفت دهرًا ولا يموت، للبنفسجِ مِن إبداعك لغة، وللتركواز مجال، ما زال الأصفر مخمورًا بألقِ الشمس، وللفواكه احتفال بهيج بنضارة الألوان.

رؤيا..

ذات ليلة حبلى بالهمومِ نامت إيليانا وهي تكفكف دموعها حزنًا على موت أنس؛ فرأته في المنام وهو يشير بسبابته ويقول لها:

_الواحد خير مِن الثلاثة؛ فالشمس بجلالها واحدة، والقمر ببهائهِ واحد، والأم بحنانها واحده؛ فلو كان في سمائنا ثلاث شموس لأحرقنا اللهيب، ولو كانت هنالك ثلاثة أقمار لأغرقنا مد البحر وجذرِه، ولو كان للطفل ثلاثة أمهات؛ لتشاكسن

فيما بينهن وتصارعن على الطفل صراعًا شديدًا، هذه تريد أن ترضعه أكثر مِن غيرها، وتلك تريد ضمه إلى صدرها أكثر مِن غيرها، والثالثة تُريد أن تنيمه بين ذراعيها لفترة أطول مِن غيرها، إن حدث ذلك ستعم فوضى كبيرة، العاقل هو مَن يختار الواحد بدل الثلاثة؛ فقد ناضل جميع الأنبياء نضالاً عظيما لإثبات ذلك، ومِن أجل تحقيق ذلك نُشر يحيى بالمنشار، وأُلقيَّ إبراهيم في لهيبِ النار، وموسى تم نفيه وإبعاده عن بلده فتحدى الأخطار، وعيسى في السماءِ يقول بأنه عبد لربٍ واحد قهار؛ فاختاري الواحد الصحيح؛ فأنت فتاة روحانيه ولستِ بملحدة تعتقدين بالحياة ما بعد الموت، وتعتقدين بوجود الجنة والنار؛ إذًا فلتختاري الواحد لتلحقي بي؛ فلقد صرت سعيدًا بالواحد الذي اعتقدت، وكل مَن اعتقد بالواحد سينجو.

سألت إيليانا عن تفسير هذه الرؤيا؛ فأخبروها عن ذلك شأن العظيم، أعلموها بأن الرب واحد وأن الوحدانية هي الشأن الذي قد ناضل مِن أجله الأنبياء، بما فيهم عيسى وموسى ومحمد وإبراهيم، وداود وسليمان ونوح عليهم الصلاة والسلام.

ظلت إيليانا مهتمة بهذا الموضوع، راجعت القرآن الكريم المترجم باللغة الإيطالية؛ فاعتقدت بتلك الفكرة واعتقدت بوحدانية الله عز وجل وأعلنت إسلامها، لم تلبث إيليانا طويلاً بعد ذلك والتحقت بأنس؛ فكانت وفاتها أثناء أدائها للصلاة وهي على وضعية السجود للواحدِ الذي اعتقدت.

★★★



الفصل الرابع

صوب مدينة الأبيض..

الكثير مِن سكان مدينة الأبيض التي عاش وترعرع فيها أنس كانوا يحبونه؛ فأكتظ صيوان العزاء بجمع غفير مِن الناس، قدموا لأداء واجب التعزية في وفاة أنس، وظلوا لثلاثة أيام متتاليه أمام منزله، يواسون مُزمل في فقده المؤلم لولده، وكذلك يواسون أمه المحزونة حجه النِعمة، وأخته المفجوعة هاديه، أثناء ذلك لا يُسمع في الدار صوت سوى صوت البكاء والعويل، ولا يُرى فيه إلا الدموع، ومُزمل لا يفتر عن قول إنا لله وإنا إليه راجعون.

جلس مُزمل مع حجة النِعمة مساءً وقد خف عدد المعزين، وأخبرها بأنه قد رأى ابنهما أنس في المنام قبيل وفاته، وهو يتوسط طريقين عن يمينه وعن شماله، الطريق الذي عن يمينه كان مُتسع ومضيء يكسوه الاخضرار والألق، وعن شماله طريق ضيق ومظلم تجول به الأفاعي والعقارب وبه أشواك كثيرة، تفوح منه روائح كريهة، لم يَشتم مُزمل روائح بمثل قذارتها قط.

أنس كان متوسطًا هذان الطريقان؛ فسألني:

_ أي الطريقان أختار يا أبي؛ فأنا حائر.. دلني على الطريق الذي فيه خير لي، ارشدني وأنصحني يا أبي.

فأرشدته بأن يسلك الطريق الذي عن يمينه؛ فسلكه وولى باسم الثغر قائلاً:



_إذًا سنلتقي ولن نفترق أبدًا، أنا وأنت وأمي، وأختي هاديه وكذلك جعفر وابنهما الذي سيشبهني كثيرًا، وفتاتي الإيطالية التي اختارت الواحد بدل الثلاثة، إلى اللقاء يا أحبة.

ثم ولى رافعًا يده مودعًا، خفف مُزمل بتلك البشارة عن حجه النِعمة حزنها؛ فتهلل وجهها واطمأنت وسكنت.

حب متواصل..

ظل جعفر ابن جارهم الأفندي على ضلاله القديم؛ فلقد ظل وفيًا لحبه وعشقه لهادية، لا يُمني نفسه بسواها، ولا يتوق لرؤية غيرها، كان يعتقد بأن التشويش الذي أدى لهز صورته في عين هاديه ما هو إلا غشاوة ستنقشع عن عينيها بنور الحقيقة، حقيقة حبهُ وإخلاصه لها.

هاديه في تلك الفترة رفضت عددًا مِن الرجال الذين تقدموا لخطبتها؛ لإحساسٍ كان يعتريها بأن الكلمات التي قالها جعفر عن كونه تسبب في انتحار فتاة كان يألفها، ليس الموضوع كما ظنته؛ فهنالك أبعاد أخرى مخفيه وزوايا لم تتضح من هذه القصة.

بعد مرور حقبه مِن الوقت تجلت الحقيقة كاملة لجعفر وهاديه أيضًا؛ إذ تبين أن الفتاة التي ظن جعفر بأنه تسبب في انتحارها لم تنتحر، تلك الفتاة قد ماتت مقتولة، وليس لجعفر شأن في ذلك، بعد خلو طرف جعفر مِن تلك الاتهامات، وتأكد هاديه بأن ما جرى للفتاة ليس بسبب جعفر، قامت باعتذار منه، جعفر أخبرها بأنه يسامحها على سوء التفاهم الذي جرى.

عاودت هاديه التلاقي بجعفر، وبدأت علاقتهما تعود كما كانت عليه في السابق، إلى أن قررا الزواج؛ فتقدم جعفر لخطبتها ووافق مُزمل على ذلك، ليجيء

بعد ذلك الأفندي سَلمان وأمه سعاد لمنزل مُزمل، وتمت خِطبه هاديه لجعفر بصوره رسمية؛ لتصير هذه الخِطبة عقد قران تم به تزويج جعفر مِن هاديه.

فزارت الأفراح منزل مُزمل مرة أخرى وقد لبثوا فيه وقتًا طويلاً يظللهم الحزن والأسى على فراق ابنهم أنس.

هكذا نَعم جعفر وظفر بالمُنى واشتفى، بعد أن ارتوى بمرارات الفراق وطول الجفاء، هكذا اجتمعا جعفر وهاديه سويًا؛ فكانت له سكن، وابتسامتها له وطن، أحبها حبًا عظيمًا ذلل المستحيل مِن أجلها، وأشرق مستقبله معها بواقعٍ جميل، وغد رائع بروعة ذلك الحب الذي جمعهما.

زواج ميمون..

تزوج جعفر مِن هاديه وعاشا في سلامٍ وحب ووئام، ورُزقا بابن أسموه أنس، كان أنس الصغير يشبه خاله أنس كثيرًا، طريقه حديثه، ملامحه، نشاطه، حيويته، مرحه؛ فكان نسخة مُطابقة لخاله تمامًا.

وجود أنس الصغير مع جده مُزمل وجدته النِعمة خفف عنهما كثيرًا ألم فقدهما لابنهما أنس؛ فقد كان يرافق مُزمل على الدوام ويجلس معه في الورشة يُؤنسه ويساعده في أداء بعض المهام البسيطة في العمل..

كبر أنس الحفيد وجاوز العشرين عامًا، ذات نهار مُشمس في يومٍ زاهي جميل أثناء تجول أنس الحفيد في الأرجاء والضواحي البعيدة، عثر على مطرقه تشبه في شكلها وهيئتها شكل الإزميل القديم الذي عثر عليه جده مُزمل قديمًا.

رفع أنس المطرقة ونظر إليها لوهلة وهم بأخذها معه؛ لكنه لم يفعل ذلك بل مضى في سبيله وتركها في مكانها خلفه غير عابئ بها، نعم قد تكون تلك المطرقة كنزًا ثمينًا مثل ذلك الإزميل الذي عثر عليه جده قديمًا، لكنه تركها لأنه



يُدرك أن الكنز الحقيقي الذي عليه أن يتحصل عليه ويعثر عليه هو كنز إيمانه وارداته ووعيه، وكفاحه وصبره، وعلمه وثقافته، وحريته وطموحه؛ ليتقدم بخطى واثقه غير متوانيه للوصول لأهدافهِ وأمنياته السامية.

فالمرحلة القادمة لرجال يتوقدّ لهب العزيمة في صدرهم كالبركان، وتزمجر الإرادة في ساحات أهدافهم كالعاصفة، يتقدمون بالحبِ للمستقبل، أياديهم بالبذل بيضاء، وقلوبهم مشاتل ورد، المرحلة لعبقريات رائدة، وعقول باستنارة العلوم مشرقة، الرؤى المتأملة ترنو لأعلى، والهمم السامقة تتوق للسماءِ، يحدوها التفاؤل بغد أجمل ساطع البهاء، يغرق أركان ظلمات الجهل والمِحن بضياء قوي.

المرحلة لمبادئ بإيمانها بحريتها على الحق راسخة، تتحدى إغراءات الزيف والبهرجة، تتعالى على الأوحال ولا تستجدي الغيث مِن غمام بأشكال الأحذية.

أخيرًا..

أحبائي قارئي الروايات والقصص، لا تجعلوا ما نسطرهُ لكم مِن حكايات تلهيكم أو تشغلكم عن أحسن القصص، ألا وهي قصص القرآن؛ فكلامنا وحكاياتنا سراب، والقرآن بقصصهِ حقيقة، قصصنا هراء قد لا يخلو مِن الحكمة وبعض الفوائد والصواب، أما القرآن فهو دواء وشفاء وهو مجمع الحكمة ومنبع النور على مر العصور، على هذا إن وجدتم في كلامنا وقصصنا شيئًا مِن الحكمة؛ فخذوا بها فإنها ضالتكم وأنتم أولى بها، وإن وجدتم خلاف ذلك فعرض الحائط أولى بها.

عليهِ فإنه مهما أظلم اليأس واعتكر الليل، وتعاظمت الخطوب والشدائد، ما دام مِشعل الإرادة وعلو الهمة متوقدًا في إحساسنا وشعورنا ورؤانا؛ فسينجاب ليل المِحن والآهات، ويسفر صبح جديد، وما دامت قيمنا وأخلاقنا وتعاليم ديننا حية فينا؛ فلابد لنا مِن نماء وحياة طيبه، ولابد مِن زوال المِحن بلا شك وإن طال الزمن.

⋆★⋆

يا أخي في الشرق، وفي كل سكن

يا أخي في الأرض، في كل وطن

أنا أدعوك.. فهل تعرفني!

يا أخًا أعرفه رغم المِحن

إنني مزقتُ أكفان الدجى

إنني هدمت جدران الوهن

لم أعد مقبرةً تحكي البلى

لم أعد ساقية تبكي الدمن

لم أعد عبد قيودي

لم أعد عبد ماضٍ هرم عبد وثن

أنا حيٌّ خالد رغم الردى

أنا حرٌّ رغم قضبان الزمن

فاستمع لي.. استمع لي

إن نكن سِرنا على الشوكِ سنينا

ولقينا مِن آذاه ما لقينا

إن نكن بتنا عُراة جائعينَ

أو نكن عشنا حفاة بائسينَ

إن تكن قد أوهت الفأس قوانا

فإنا قد وقفنا نتحدى الساقطينَ [١]

---

[١] محمد مصباح الفيتوري/ قصيدة (مِن أغاني إفريقيا) مع تصرف يسير.



خاتمة..

دنت نهايات الحكاية نحو بداية أخرى ابتدأت بختام القصة؛ فعسى اللؤلؤ أن يتدحرج منها حرًا مِن عتمة الأصدافِ ويستلقي أمنًا بالضفافِ، متضمخًا بالشعاعِ وقد أبحر المركب الخشبي مِن شواطئها مندفعًا بالمجدافِ، إلى شاطئ آخر يزهو باصطفاف الصفصاف على جنباتهِ ليشرق المعنى، فيتضح السبيل إلي السلسبيل الأول لأقصى جهة في المستحيل الذي يرنو للمستحيلاتِ، فيذرها صفرًا أمام الريح حينما يتقدم يمين العدد الصحيح السالم، الصفر الضئيل يصبح ذو قيمه حسابيه بعد أن كان نقطه هلاميه؛ ليصير الكتاب سر الإزميل مجرة أخرى، وكوكبًا لامعًا يسير جهة دوران الحروف حول كلماتها، وإطباق الشفاه على قبلاتها، وقد انجرف مذاق القهوة المشتهاة عن مسارهُ في فمي، متجاوزًا بربع ملعقة فقط مِن الزنجبيل خط سيّره وسِريانه اللانهائي على أوراقي؛ فتوقفت بعد أن طغت نكهته القوية على رائحة البُن الذكية؛ فصار مزاجها طفيليًا على لغتي؛ فصارت ضادها صادًا، وصادها راءً، وراءها ياءً للنهاية، ترنو الياء لبداية كتابات أخرى شامخة كحرفِ الألف عالي الهامة طويل القامة.

يحفزها شذى رحيق برتقالة بعيدة تلوح في الأفق الحزين بالمآسي؛ التي تكتب بمِداد حكيم متفائل، جريء مقاتل، مصادم يُحاول ثم يحاول ويظل يحاول؛ لتعود القهوة طازجة شهيه كما كانت، تتحرك وسطها حبيبات السُكر البني وتدور إلى أن ترسو على قعر الكوب باطمئنان؛ فتتحرك دوامة مِن الطعم الجميل، أَما آن للنخيلِ أن يتسامق، أَما آن للافتراق أن يتناسق، أَما آن للجواد أن يتسابق بمضامير التقدم والتوافق، أَما آن للشر أن يقل، وللعدوان أن يضمحل، أَما آن للطريق أن يصل لغاياته حيث السلام والحب والقبل، أَما آن للقبلية أن تزول مع الجهل

والفوضوية، أَما آن للقلوبِ أن تتصافى وتتحاب بحسن نيه، أَما آن للرياءِ والسراب أن يطوى عنا الطوية؛ ليصير الصدق صادقًا بمبدئه والسجية، أم سيلتف عليه مليار خنفساء وسبعون حَيَّة، هل ستنعم الآمال بالآمال! أم هذا محال، هل سيطوف الشاهين بأعالي القمم؟ أم سيتشبث الغراب بحقه في التلذذ بمذاق طعم الرمم، هل سينام الفهد الوثاب بهدهدةِ الغنم!

لا يفيض النهر إلا إذا تماوجت واستدارت داخله الدوامة، وكذلك لا يترهب الناسك داخل الحانة، ولا تبنى الأوطان بالسرابِ والضباب، بل بعمل بعهد له ميثاق، وبعزم له إشراق، وبفكر مبدع خلاق، كل قول بلا تأثير يقبع في فراش وثير لن يجري به ماء الغدير، ولن يصل منه العبير إلا إذا بذلنا وتصالحنا مع أنفسنا ومع غيرنا وتعاونا، وإن وحدنا الإرادة والراية والولاء، وتوحدنا على توحيد خالق الأرض والسماء؛ فلا وثن يفيد ولا قبر يفيد، ولا وتد يُفيد ولا زعيم يفيد، ولا حزب يفيد؛ فالله وحده الفعال لما يريد ونحن العبيد.

ساقني الكتاب "سر الإزميل" لسردٍ جميل، وأتوق للأجمل، مُزمل كان بيننا وأنس صار حي فينا، أحببنا هاديه ورتعتنا في أحضان إيليانا؛ فسمعنا منها الذي أشجانا، حلمنا بذاك الحلم الطفولي البريء، حلمنا بالنبع صافيًا، وبالماءِ جاريًا، وبالورد كافيًا لأشواقِ العاشقين، جال الإزميل كما قرأتم في البعيد فصار قريبًا، وترنم بالناي فصار وليفًا، وبالحبِ فصار شفيفًا، تدرج بي الأصفر إلى بداية الكحلي وازدهى بالبنفسجي، حلق في السماوي وعشق البني لون التراب، وامتد بالأخضر لون النماء، عندما طاشت الريشة فيه بألوانها عزفت كمنجات الحروف ألحانها.

ختامًا.. أحتاج لريشة أدق لرسم تفاصيل التفاصيل الوسنى الغافية على جداول الضرب، وأنا الصفر أمام آلة الحساب أترنح حينًا يمين الأعداد الصحيحة وحينًا أكبو يسارها، لا ولن أقطف وردة لأجمل الغرف، ولن أجمع التحف، ولن

أعجن الخزف، سأجعل الرسم يرسم نفسه بنفسه بلا عُقد، والشكل يختار شكله بلا تدخل مِن أحد، والمعنى يصوغ معناه بمعنى معناه الذي شهِد، سأجعل النهر ينساب على طبيعته وسجاياه الحلوة، لينام السنونو في حضن أغنيته بأمان، سأدعو لانعتاق المفردات مِن سجنها، سأدعو لحرية النسمات في جوها، سأذيب المساحيق عن خدود الكلام؛ لتحط رحالها على الخد فراشة وتتبرعم وردة، ويزهر ويزدهر بستان في صباحٍ جميل جلي الإشراقات.

ها قد بلغت القصة منتهاها، وأوصلت مفادها ومعناها، وما هي إلا جهد اُلمقل وطاقة الضعيف المستضعف المهذار، أستغفر الله مِن كل كلمة جانبت الصواب والحكمة، أستغفر الله مِن كل ذلل أو لغط وإساءة تعبير، أستغفر الله مِن كل إشارة أو تلميح بنقصان ناقص كنا متصفين به، إن كان في الرواية صواب وسداد فهو مِن الله، وإن كان فيها مِن ذلل ونقص، وتخليط وخطأ؛ فهو مِن نفسي الآثمة والشيطان؛ فخذوا بجميلها وتغاضوا عن قبحها، هذا والله هو المولى وهو المستعان.

تمت بحمد الله.



فهرس